قرابين لمزارات بعيدة

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: E-unecriv@net.sy

mail :

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu-dam.org

❑❑

ظافر النجار

قرابين لمزارات بعيدة

- روايـــــة -

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق – 2004

الإهداء

- إلى زينب – ورؤى .. وربى.. ونهى
المساهمات بدفع فاتورة الغياب
- وإلى التفاصيل الحلوة العنيدة التي يتقصّفها أكثر من موت قبل أن تتبرعم.

**

الفصل الأول

دسَّ الكولونيل ورقة الاستدعاء الرسمية في جيب سترته وسأل زوجته أن تناوله جزمته العالية ومعطفه الواقي من المطر.

فتساءلت الزوجة: لماذا؟

. إنها تمطر.

. لكنك لن تذهب سيراً على قدميك!

ابتلع الكولونيل امتعاضه، وخرج دون المعطف والجزمة. فدمدمت الزوجة قائلة بنزق: أيُّ لعبٍ صبيانيّ هذا؟!

في حين اتجه زوجها نحو سيارة البيجو الراقدة أمام منزله، حيث كان السائق ينتظره خلف المقود. فدلف إليها وارتمى على المقعد الخلفيّ رادّاً بآلية محضة على تحية السائق.

. إلى أين يا سيدي؟

. إلى جهنم.

فتحرّكت السيارة، لكأن السائق يعرف طريق جهنّم جيّداً. لكنه ما لبث أن قال بحذر: لكن اليومَ عطلة رسمية يا سيّدي.

ـ أعرف. قالها الكولونيل بهدوء ثقيل بعد أن كاد يزجره بقوله "وما شأنك أنت؟!".

لكنه آثر الصمت، مع التأكّد ثانية من صحة التاريخ.

ثم ابتسم لنفسه ساخراً، وهو يتذكر أن بعض المؤسسات لا تحتمل العطالة أبداً.

وهناك أمام بناء كبير ومنعزل نسبياً، توقّفت السيارة، وترجّل الكولونيل.

مراراً أبرز هويته، ومراراً ردّ على التحيات السريعة للحرس بحركات مقتضبة من يده.

وعند المدخل الرئيسي أبرز ورقة الاستدعاء، ودخل برفقة أحدهم عبر ممرات متداخلة وملتوية وضعيفة الإضاءة، ليسمع كما سمع في المرات السابقة فحيح استغاثات مكتومة، وحشرجات مبهمة، تنزّ واهيةً عبر الجدران الصمّاء.

البعض قال أن البناء مسكونٌ، والعياذ بالله.

والبعض قال أنها مجرد أوهام.

لم يشعر الكولونيل بالحاجة للإقياء كما حدث في مرة سابقة.

لكنه شعر بوهن عام، وبصداع خفيف يضغط على صدغيه.

أخيراً استأذن، ودخل المكتب المألوف لديه، باتساعه

وبأثاثه الفخم، ليرى شاهين منكبّاً على مراجعة بعض الملفّات.

لحظاتٌ ثقيلة مرّت على الكولونيل الذي لم يتعوّد الانتظار، وهو ينتظر إذناً مُذلاً بالجلوس.

ـ كولونيل عماد؟! تساءل شاهين بدهشة مفتعلة، وقد رفع نظره ونهض مرحباً بالكولونيل. ثم عقّب: تفضّل يا كولونيل.

. وهذه؟ تساءل الكولونيل، وهو يبسط ورقة الاستدعاء

. آه.. لا عليك.. تجاهلها يا كولونيل، واجلس.

وضغط شاهين على زر الأنترفون. فأطلّ حاجب فتيّ ضئيل الجسد متسائلاً:

أمرك سيدي؟

. هات كأسين من النبيذ الفرنسي.

بسرعة أحضر النبيذ، وبسرعة أكبر عبّ الكولونيل كأسه، مبتلعاً مع النبيذ الكثير من الهواجس والأفكار السوداء.

ثم قال: هل أستطيع الانصراف؟

. طبعاً تستطيع يا كولونيل.. أنت مجرّد ضيف محترم.. وتستطيع أن تأتي أو تنصرف متى شئت.. برغم أنني أرحّب ببقائك.. بل ويطيب لي أن أسمع ما يسرني عن أخبارك و.. ثم إننا منذ زمن لم نتبادل الرأي، ولا حتى الأنخاب.

. هل هناك شيء محدد تود سماعه؟

. أودّ سماع ما تودّ قوله.

. أنت تعرف أن ليس لديّ ما أقوله.

. حقيقة ما عدتُ أعرف شيئاً، خاصة عن معارفنا أيام زمان، ويسعدني أن نظلّ على صلة ما. بل ونستطيع أن نتعاون في أمور كثيرة، عامة وخاصة إن أحببت.

كاد الكولونيل أن يقول: "شاهين لا تراوغ..".

لكنه قال: لا تعوّل علي.. حيث لا أنتظر سوى التقاعد.

. وماذا عن أحلامنا الكبيرة والجميلة؟!

ـ لكل مرحلة أحلامها.. والآن لا أحلم إلا بمزرعة ريفيّة بسيطة، وبموت هادئ.

. لا يا رجل! أنت تتحدث كعجوز!

. ربما.. خاصة والصداع يضايقني.

. صداع؟! أأستدعي لك الطبيب؟

. لا ضرورة لذلك.. في البيت أتدبّر أمري إن سمحت.

. حسنٌ.. مع السلامة يا كولونيل.

فانصرف الكولونيل، بعد أن شدّ شاهين على يده مودِّعاً، ليرى سائقه مسنداً رأسه على المقود، وغارقاً في انتظاره. وحين شعر هذا باقتراب سيّده اعتدل، وأدار المحرّك.

. إلى أين يا سيّدي؟

. إلى المنزل.

وما أن أقلعت السيّارة حتى شخرت وتوقّفتْ. فقال السائق باستياء: حرنت اللعينة. وراح يعتذر لسيده.

فقال الكولونيل: لا عليك.. تدبّر أمرك معها. وترجّل ليستقل سيارة أجرة. لم يكن يودّ الذهاب مباشرة إلى البيت، متمنياً لو أن البيجو أو "البجعة" كما باتوا يسمونها بخير، ليمضي ويمضي إلى لا مكان.

".. اللعينة.. رغم كل الإصلاحات تظل تحرن وتحرن.." وتذكّر أنه ورثها عن سلفه بعد أن أفنت شبابها في مطاردة الأرانب البريّة وبقايا الغزلان المنقرضة، إلى أن رموها في مستودع الآليات، كعجوز خربة، ليعاد إصلاحها وطلاؤها، ومن ثم لتخصّص له مع سائقها، الذي قدَّم له نفسه بتهذيب مشكوك فيه، على أنه الجندي بديع، والذي بدا حريصاً على ملازمة سيده.

"..حسناً يا هذا.. لا أستطيع أن أقدّم لك ياقتي باستمرار.

وأقول لك: تشبّث جيداً يا بديع.

***

الفصل الثاني

. أنتَ مبتل! قالت الزوجة باستنكار.

. تعطّلت السيارة.

. هذه السيارة لا تليق حتى بجندي.

ـ لن أتأخر كثيراً لأتقاعد وأرميها لهم. قال الكولونيل ذلك، ومضى إلى غرفته، ليغيّر ثيابه ويستلقي، علّه يستريح من آثار الصداع العالقة بصدغيه.

وحالما أغمض عينيه رأى نفسه يمتطي طائرة نفّاثة، وينطلق بها بالسرعة القصوى، خارقاً جدار الصوت فوق أبنية كبيرة ومعزولة، إلى أن تمردّت عليه، وراحت تطير وتحلّق على هواها في السموات العالية.

".. اعتقدتُ أنني طيار جيّد". قال ذلك لنفسه وهو يحاول استعادة السيطرة عليها، مع شيء من القلق. إلى أن لاحظ أنّ ثمة دخاناً يتسلل إلى جوف الطائرة.

"ما هذا بحق الله؟!"

ومع تكاثف الدخان بدأ اللهب يمد ألسنته ويتطاول. فراحت يدا الكولونيل تحاولان بضراوة فعل شيء ما. ولكن عبثاً، فالنار التي اندلعت باتت تحاصره، إلى أن بدأ يشم رائحة جلده المحروق.

أخيراً لم يدرِ متى وكيف انقذف مع المظلة على تخوم انفجار الطائرة. ليجد نفسه سابحاً في فضاء لا متناه، إلى أن اقترب منه خطّاف ما، ليجرّه من حيث لا يدري، وبألمٍ إلى مشارف بناء كبير ومنعزل، حيث كان شاهين ينتظره مع ابتسامة واثقة.

". كدت تقتل نفسك يا رجل!

... .

ـ في المرة القادمة لا تطر بمفردك.. أو على الأقل تحقّق من جاهزيّة الطائرة.

(....)

ـ لا تقلق بشأن المسؤولية، لن نطلق النار عليك. بل سنعتبرك بمهمة تدريبيّة. ألا يروق لك ذلك؟

... .

تبدو مرهقاً يا كولونيل. تعال يا سعيد.. هات المرسديس وأوصل الكولونيل إلى حيث يشاء...".

فتح الكولونيل عينيه جزعاً، ورائحة جلده المحروق لا تزال تزكم أنفه، ونهض ليمضي إلى الشرفة، حيث كان المطر لا يزال يهطل، مع شيء من الوحشة، ويتلفّع بشيء من الضباب. فراحت بعض الذكريات القريبة والبعيدة تتوارد وتتداعى، لتلفح ذاكرة الكولونيل، وتترسّب في أعماقه كأشياء طينية دبقة، إلى أن امتلأ بشتائم كبيرة احتار لمن يوجهها، لكنه اكتفى بشتم هذا اليوم الذي سرعان ما تتحوّل أمطاره إلى وحول.

وشدّه صوت زوجته: ما الذي تفعله هناك؟! الجوّ بارد!

. أجل.

. تعال.. أعددت لك القهوة.

كان يشعر فعلاً برعشة باردة تسري في جسده. فعاد إلى غرفته، ارتمى

على الأريكة، أزاح هواجسه، وراح يرشف قهوته على مهل.

. ما الذي يريدونه منك؟

كاد أن يجيب: "إنه مجرّد لعب.. لكنه ليس صبيانيّاً البتّة".

إلا أنه ابتسم وقال: مجرد دعوة لشرب النبيذ الفرنسي.

لن يقول أكثر من ذلك، الزوجة تدرك هذا، مثلما تدرك أنه لا يرغب أبداً في إشراك الآخرين بهمومه ومشاكله. بل ولا يثق بقدرتها على الخوض فيها. فأخفت امتعاضها، وراحت تتحدّث عن همومها هي. وكانت ابنتهما وفاء في قلب تلك الهموم.

. يبدو أن وفاء لم تتوفّق بزواجها.

. الأمور نسبيّة.

. سومر ليس كما توقعناه.

كاد يقول لها: "إنه خيارك أولاً. وخيارها ثانياً".

لكنه قال: ليس بالضرورة أن يكون كما تتوقعين.

. حاول أن تحدّثها بالأمر.

. مشكلة الأزواج لا تسوّى إلا بين الأزواج.

. هذا إذا كانت المشاكل عادية وبسيطة.

. هل هناك مشكلة أكثر من عادية؟

. أسألها.

قالت الزوجة ذلك، ونادت وفاء، التي ما لبثت أن جاءت على مضض.

فبادرتها أمها القول مازحة: يبدو أن وفاء تعبت من الزواج.

فعقّب الكولونيل قائلاً: غريب! رغم أن أمّها لم تتعب طوال ست وعشرين سنة.

قالت الزوجة: الفرق أنني أكثر واقعية.

فقالت وفاء بنزق: بل الفرق أنني زوجة نذل. وأخفت وجهها الذي شارف

حدّ البكاء.

أطرق الكولونيل وفكر: "قد تكون على حق.. فالدنيا مليئة بالأنذال".

ثم قال: عمرك يتّسع لإعادة النظر بكل شيء.

فتساءلت الأم مستنكرة: أتشجّعها على الطلاق؟!

فأجاب الكولونيل باستياء: بل أشجعها على اتخاذ قرار.

عندها نهضت الأم بما يشبه الاحتجاج، وهي تبربر: سيخرب بيتها.

وخرجت وهي تضمر تسوية المشكلة بعيداً عن عماد الذي لا يحسن . على حدّ قولها . معالجة الأمور العائلية.

***

الفصل الثالث

أيام عدّة مضت على حركة دائبة لأم وفاء، ومساع توفيقية باءت كلها بالفشل. خاصة وأنّ سومر غير متحمّس لمصالحة وفاء، بل يبدو توّاقاً لنفض يديه نهائياً منها. وأبو سومر لا يتحدّث إلا عن تسوية ماليّة. مما جعل أمّ وفاء، ورغم عزمها على ضبط نفسها، تثور أكثر من مرة. لتعودَ بعدها إلى لغة المساومة والمصالحة، دون أن يعيرها أحد الاهتمام اللازم.

ولما صرّحت لسومر بأن ابنتها حامل. قال لها وبفجاجة: لتطرحه.. لسنا بحاجة إليه.

آنئذ، وتحت ضغط شعورها بالإهانة، راحت تهدّد سومر وأباه بشكل غامض، على طريقة زوجات الكولونيلات.

لكنّ أبا سومر لم يكتفِ بالسخرية منها ومن كولونيلها فحسب، بل هددهما صراحة إن لم يعرفا حدودهما. مما تركها مذهولة ومصعوقة.

عندها فكرت جدّياً بتحريض الكولونيل على فعل شيء ما.

لكنها غصّت بإحساس غامض أوحى لها بأن الدنيا لم تعد هي الدنيا.

فمضت إلى منزل أبيها في حيّ التجارة.

وهناك، أفرغت كل قهرها بسيل من الشتائم. ثم استسلمت لنوبة من البكاء الحاد.

حاول أبوها عبثاً إفهامها أنها رومانسية أكثر من اللازم، وأنّ الدنيا أكبر من قضيّة زواج وطلاق، وأن دموعها كلها زائدة، ونصحها بعدم إثارة ضجّة لا معنى لها. إذ قد تُلحق ضرراً غير محسوب. وتعهّد بأن يثير مع أبي سومر مسألة تسويةٍ سترضيها بكل تأكيد. في حين بدت أم وفاء نهب شعور غامض بأن جدار كبريائها العالي بدأ يتصدّع، وبأن والدها الحاج عدنان ذا الحول والطول يخذلها.

وبأنه حريص كل الحرص على سلامة علاقاته بمن كانت تسميه اليهودي الخسيس "أبو سومر" ذاك الذي كان من قبل يتمسّح بأحذية من هم أقل شأناً من زوجها، ليساعدوه على اقتناص تعهّد تجاريّ ما. بينما لا يتردّد اليوم بإهانتها، بل وإهانة زوجها الكولونيل نفسه! أخيراً بدت عاجزة عن فهم كل ما يجري حولها. فلملمت إحساسها بالمرارة، وغادرت إلى منزلها، متجاهلة نداء الحاج عدنان، ورجاءَ أمّها بأن تستريح وتهدأ، دون أن تدري ما الذي يمكن أن تفعله بمشاعرها عامة، أو بمشاعرها كأم . خاصةً . والتي لا يهتمّ بها أحد، بما في ذلك ابنتها الوحيدة وفاء.

فصبّت اللعنات كيفما كان. ثم راحت تلعن قلبها الذي لم يسمح لها بإنجاب المزيد من الأولاد. ثم تذكرت أنها لن تستطيع تحمل المزيد من المتاعب.

بل أصبحت تميل للاعتقاد بأنها وحيدة. بل وأنها زائدة، ولا حاجة لها البتة. فانزوت في غرفتها لتتناول دواءها، وتستسلم لمزيد من الشعور بالعزلة.

أما الكولونيل الذي كان بمنأى عن حركة ومتاعب زوجته، فقد كان يعتقد أن القضيّة يمكن أن تسوّى على الهاتف، وأنّ القرار قرارُ وفاء بالدرجة الأولى.

لكنه فهم متأخراً ما سبق أن فهمته زوجته.

مع ذلك لم يُدهش كثيراً، واعتبر أن الأمر انتهى إلى ما يجب أن ينتهي إليه. خاصة وهو يدرك أن أبا سومر لم يعد ذلك المتعهّد الصغير، وأنه . هو عماد . لم يعد ذلك الكولونيل الذي كان الجميع يحسب حسابه، فقرر أن يضغط

على وفاء للتنازل والقبول بالأمر الواقع، وأن يترك للحاج عدنان أمر تسوية مسألة الطلاق مع أبي سومر كيفما كان الحال، وبطريقة ودّية ما أمكن ذلك.

ومضى من فوره إلى ابنته.

وبأعصاب باردة مثقلة بنزيز ذكريات حادّة ومختلطة، راح يتحدّث إلى وفاء، يفضي إليها بما يجب أن يكون، ثم نصحها بالإجهاض. في حين كان وجهها يتعثّر بانفعالاتها، وبدكنة صمتها.

أخيراً ودون أن يترك الكولونيل مجالاً للنقاش خرج يجرجر جسده الخمسيني، ويتنفّس بملء رئتيه.

وهناك بجوار الشرفة تسمرت نظراته على البناء المقابل، وبدأت أسنانه تقضم أطراف شاربه الأيمن، دون أن يدري متى تناهى إلى سمعه نشيج وفاء المكبوح والمختلط بنتف من كلمات الأم المتعثرة. فلمع الموت أمام عيني الكولونيل كفكرة معقولة، لكنه سرعان ما أسقطها، وراح يمسح حبّات العرق الباردة عن جبينه، متذكراً وفاء الطفلة الناعمة وهي تثغو وتزحف نحوه، دون أن يجد الوقت الكافي لاحتضانها ومداعبتها.

وخرج من المنزل حانقاً على كل الدنيا، وعلى نفسه.

***

الفصل الرابع

زواج وفاء الذي لم يعمّر سوى سنتين وبضعة أشهر، لم يكن حدثاً عاديّاً البتة. سواء في ذاكرة وفاء، أم في ذاكرة القرية.

مثلما كان محاولة استقرار، دفعها إليها الأب، والأم، و..نادر!

وفاء تتذكر جيداً يوم أتى ذلك الريفيّ طالباً للفلسفة.

لم يكن جديداً عليها، فهو ابن عمها. تعرّفتْ عليه في القرية، حيث كان الوالدان يصطحبانها دائماً إلى هناك بزيارات عديدة، خاصة في مواسم الصيف.

وتبتسم وفاء ابتسامة غامضة ومليئة لنتف من ذكرياتها تلك.

بل لا تتحرّج من الحديث عنها ولو بحياديّة كاذبة...

"ها.. هل أعجبتكَ؟!" قال أبي ذات مرة مداعباً "الصبيّ نادر"

وهو يلكمه بلطف على صدره، ويشير نحوي.

تطلّع الصبيّ إليّ بحياء، وابتسم من بين أصابعه التي راحت تغطي وجهه المدفون في حضن أمه، فضحكت، ثم لا أدري كيف صرنا نركض سويّة كأرنبين عبر أزقة القرية.

الجوع وإصرار الأمهات وحدهما كانا يقطعان متعة اللعب المتواصلة. أما حين نمضي إلى البستان فأمام عيون أهلنا نطير.. نعربد.. نضيع بين الخضرة.. نرعى كخراف صغيرة.. نتراشق بالماء والفرح.

. أنت أسمر. قلتُ له ذات مرة.

فقال: من الشمس.

قلت: وأنا بيضاء مثل الحليب.

. من قال لك ذلك؟

. أمي.. وأبي و.. وكل العالم.. وأنت ما تقول؟

. أقول بيضاء مثل الثلج.

ثم قال لي: عندما ينزل الثلج تعالي نتراشق ونلعب.

قلت: المدينة بعيدة.. وأبي لا يأتي عندما ينزل الثلج.

ففكر وقال: عندما أكبر سأشتري سيارة.. وأجلبك كل يوم.

ومرةً قبّل خدّي. فركضت وأنا أهدّده بأنني سأشكوه لأبي.

أقسمَ أنه لن يعيدها. مع ذلك شكوته، فبكى. في حين ضحك أبي، واسترضاه.

احتضنه، جفّف دموعه وهو يقول: لا تبكِ أمامها يا جرو.

ودعانا لأن نتصالح. ثم أهملنا.

نسينا يومها أن نتصالح. وغرقنا في تقليد حركات وأصوات الطيور ومطاردتها، والفرح حتى التعب.

في زيارة تالية، كنا متمددَين على العشب بين دالیات العنب، وكنا قد شبعنا لتوّنا من اللعب والثرثرة. لمحته يتطلع إلي بخبث طفوليّ.

تساءلت كمن تذكر لعبة ما: أتريد أن تبوسني على خدّي؟

فأسرع يقول كمن لُدغ: لا والله.

قلت: أنت خائف؟

قال: أنا لا أخاف.

قلت: هذه المرة لن أقول لأحد. وضحكتُ.

فاقترب بحذر. وقبلني. فضحكتُ، وضحكَ.

ثم قال: أمي قالت لي: سأزوّجك من وفاء.

قلت: تعال لنتزوج.

كان الزواج بالنسبة إلينا، هو أن يجلس العريسان قرب بعضهما، في حين يرقص الآخرون. ويغنون ويأكلون، وأنّ من الطبيعي أن ينسحب أيّ منهما عندما يتعب أو ينعس، ليذهب إلى أمّه فينام.

وتزوجنا على طريقتنا إلى أن أتعبنا التمثيل. فوجدتُ الزواج مضجراً.

عندها قفزت أركض، وقفز راكضاً ورائي، عائدين إلى ذوينا.

لم تنقطع زياراتنا للقرية، رغم أنها بدأت تتباعد أكثر فأكثر.

بتّ أسافر أحياناً بمفردي إلى القرية. حيث الجميع هناك يحبّني، ويهتم بي، كما أن هناك فضاء لا محدود للطيران. إلى أن بدأت أشعر بالضجر. حيث لا عمّي الطيب، ولا زوجته التي تعاملني كأم حنون، ولا نادر، ولا سواهم بات بقادر على ملء الفراغ الذي تتركه المدينة.

كنت قد انتسبتُ إلى المدرسة الثانوية، ودخلتُ الحياة الاجتماعية من أبوابها العريضة، بتردّد بادئ الأمر، ثم بثقة. خاصة وأن كل من يلقاني يحتفي بي.

طبعاً لم أغفل عن أنّ لمكانة أبي العامة ضلعاً في الأمر. وكان يطيب لي استثمار ذلك.

وكل هذا على حساب إغراء القرية، وإغراء ذلك الحب الطفليّ الذي لم يعد طفليّاً.

لكن نادر وحبّه لم يتأخرا عن اللحاق بي إلى المدينة.

كان قد حصل على الثانوية العامة، وأتى ليتابع تحصيله العلمي.

نصحه أبي بالالتحاق بالكلية العسكرية. لكنه اختار أن يكون فيلسوفاً صغيراً يحشو رأسي من حين لآخر بمقولات ومفاهيم لا نهاية لها.

في الوقت الذي كانت الحياة الحلوة والسهلة مفتوحة لي على مصراعيها.

بل أصبح أستاذاً إضافياً لي. دون أن يعهد إليه أحد بهذه المهمة.

بادئ الأمر. رحّبت بذلك. وكذلك والديّ. ثم صرت أتهرّب أحياناً، إلى أن حصلتُ بدوري على الثانوية العامة وانتسبت إلى كلية الآداب. قسم اللغة الإنكليزية.

كنت أود الالتحاق بكلية الصيدلة.

"لكن درجة نجاحك لا تسمح بذلك". قال والدي ذلك ببساطة أذهلتني ليقيني بأنه يدرك أكثر مني أن درجة النجاح ليست وحدها من يقرر دائماً.

ـ إذا لم تشأ الحصول على استثناء لها، فبإمكان جدّها أو أحد أخوالها مساعدتها بذلك. القضية قضية مستقبل.

ذلك ما قالته أمي. فرماها أبي بنظرة شرسة، وخرج.

لم تجرؤ أمي بعدها على مناقشة الأمر. وقرّرتُ بدوري الرضوخ لمقاييس

النجاح العامة.

. على الأقل لنحتفل بنجاحك. قال الخال يوسف.

فتساءلتُ: أين سنحتفل؟

أجاب الخال أبو تيسير وهو يقهقه صاخباً: قطعاً ليس في منزل والدك. لم أدر حينها إن كان عليّ أن أضحك معهم، أو احتجّ. حيث أن والدي في نهاية الأمر هو والدي.

. إذاً.. في كازينو القط الأسود. قال الخال يوسف.

. وعلى حسابكَ. عقّب أبو تيسير ضاحكاً.

يومئذ وفور دخولي صادرني الكازينو بجوّه الأرستقراطي الفخم، وتوّجني أميرةً استقطبت اهتمام الكثير من الرواد.

. من هذه الحلوة؟! قالها البعض باحتراس، وبعضهم بطرق محبّبة.

. ابنتنا.

. أيهنّ؟

. ابنة الكولونيل.

وكانت الهدايا الذهبيّة التي سبق أن طوّقتْ عنقي ويديّ، وزيّنت ثوبَ السهرة الأنيق، تغريني بمداعبتها جنباً إلى جنب مع نظرات الإعجاب التي كانت تتفحّصني. إلى أن برز أحدهم. لا أدري من أين. ومدّ لي يده في دعوة ناعمة للرقص.

وزّعت نظراتي حولي بارتباك، فدفعوني بابتساماتهم وإيماآتهم المشجّعة.

. كل الأميرات يرقصن. قال الشاب مداعباً.

نهضتُ مخفضة بصري حياءً. وناولته يدي.

كنت قد تدرّبتُ على الرقص في حفلات خاصة وصغيرة، لكن الشاب، وقد بدا أستاذاً في الرقص، جعلني أبدو كتلميذة صغيرة. تحاول ألاّ تتعثّر كثيراً.

. اسمي سومر.

تطلعت إلى وجهة متذكرة أننا لم نتعارف بعد. وعجلتُ بخفض بصري وأنا أهمس: وفاء. مندهشةً من جرأة عينيه.

كانت التجربة ثقيلة على أحاسيسي بقدر ما كانت لذيذة وساحرة.

ثم قبلتُ دعوته للعشاء في ذات الكازينو بعد يومين لم أسمح خلالهما لنادر بتعكير أحلامي، والتي كانت في غاية البساطة والعذوبة والرفعة.

. أراك تعيرين المكياج والثياب والحليّ اهتماماً زائداً. قال نادر.

ـ ما العيب في ذلك؟! تساءلتُ بحنق مضمر، ورحتُ أتشاغل عن قصد. فمضى دون أي تعليق، ودون أن يكرر دعوته لي لزيارة القرية.

. في الموعد المحدّد مضيت إلى السهرة. نقلني سومر بسيارته الجميلة. بدا مهذباً ناعماً وفي غاية الأناقة.

فور أن ترجّلنا تأبّط ذراعي دون استئذان. لم يترك لي سوى السير باستسلام إلى جانبه، لكأننا نؤدي طقساً عاديّاً ومألوفاً.

للوهلة الأولى لم تطق عيناي وطأة النظرات الوقحة التي كانت تلاحقنا. والتي فرضت عليّ الانطواء على مشاعر غامضة ومُثارة.

لكن الجو العام وحرارة الويسكي جعلاني أكثر جرأة وتفهّماً لما يجري. إلى أن دنا مني أحد الشباب، وجرّني من يدي إلى حلبة الرقص. في حين كنت أتلكأ بصعوبة، وعيناي تتعلقان بسومر على أمل أن يخلّصني من هذا الخاطف. إلاّ أن سومر غرغر بالضحك إذ رأى في موقفي ما يشبه نكتة طريفة

كان الراقص الشاب أشبه بالثمل. لم يهتم بالتعارف، فقط جهد بملامسة جسدي ولدرجة أخافتني، مما جعل رقصتنا أشبه بمعركة صامتة.

وعن كثب كان سومر يرفع نخب المطربة الفتية، ويردّد معها:

لنرحل إلى أيّ عالم تريد.. طالما أنت معي.

عندما تهرّبت من الراقص وجلست، تجاهل سومر نظرة عتابي، بل ربما استغربها. وخاصرني وهو يبتسم.

. أبعد يديك. قلتُ باستنكار ويدي تدافع يده.

. الغنج الزائد لا يناسب الأميرات. قال سومر بشيء من الإحباط.

ـ لنعد. قلت، وقد هالني خلوّ وجهه من أية ملامح كتلك التي رسمتها له خلال اليومين السابقين.

فقال: السهرة مكلفة.. لم نتمتع بعد بما فيه الكفاية.

طويلاً قاومت رغبتي برمي رزمة من النقود في وجهه، ومن ثم الانصراف وحيدة. ". لن تكوني وحيدة. . أنت؟".

كدت أشهق بسعادة، وأنا أرى نادر ملء عيني، واقفاً بيني وبين سومر!

وبصعوبة تذكرت أن نادر لا يستطيع ارتياد هكذا أمكنة.

".. بل تستطيع لو شئت.."

كم رجتهُ أحلامي أن يوافق!

فالمشكلة لديّ ليست مشكلة نقود، فهذه تتدفق عليّ من هنا وهناك.

بل المشكلة كيف أعيش.

فقط لو يستطيع نادر التخفّف من إبائه بعض الشيء.

يقول: المسألة ليست أخلاقية فحسب.. ثم يصدع رأسي بشروح لا تنتهي عن ".. سلطة المال التي تسلبنا أجمل أحاسيسنا بحريتنا وإنسانيتنا ..".

ثم ينسحب بعد أن تزعجه لا مبالاتي، واضعاً بيني وبينه، ورغماً عني حدّاً من حدوده الطبقيّة التي لا يملّ من التبشير بإزالتها.

كنت أشعر بمرارة الوحدة عندما قال لي سومر: تفضّلي يا مدموزيل..

لكن لا تنسي أنك جعلتِ مني أضحوكة لرفاقي.

.. بقينا صامتين طوال طريق العودة، دون أن أدري كيف جعلته أضحوكة لرفاقه، إلى أن ارتجّت السيارة.

كانت الأشياء غائمة ومتداخلة.. الليل.. رائحة الويسكي.. السرعة المرتفعة.. الصمت الداكن.. نبضات قلبي الصاخبة. وزعقت المكابح.

تلمّستُ الأمان الغريزيّ في اليد التي حالت دون ارتطامي بزجاج السيارة الأمامي، لكن اليد نفسها هصرتني، وأطبق سومر على جسدي.

ـ نذل! صرختُ بوجهه، ودفعته بكل قواي، وصفعته بعد أن ترك على شفتيّ بصمة الاغتصاب.

. اعتقدت أننا حبيبان! قال بذهول وامتعاض.

فتساءلت باحتجاج غاضب: منذ متى؟!

فأجاب لكأنه ينهرني: يبدو أنني غلطان فعلاً.

بدوت عاجزة عن تحديد مشاعري بدقّة، أو تقييم ما حدث وأنا أترجّل من سيارته قرب منزلنا.

ـ سأجد طريقة ما للاعتذار. قال ذلك بنبرة حياديّة باردة، ومضى بعد تلويحة يدٍ واثقة.

***

الفصل الخامس

. أين كنتِ؟ سألت الأم وهي ترفع النظّارة الطبيّة عن عينيها.

. لماذا؟

. جاء جدّك لتهنئتك. أجابت الأم وهي تعيد وضع النظارة، مستدركة

: وأحضر لك هدية.

. أينها؟

. هناك. وأشارت بيدها.

. جهاز تسجيل؟ لدينا أكثر من واحد.. حسن سنجد له عملاً.

وابتسمت وفاء لذكرى جدّها العجوز الذي يحبّها ويطبطب بودّ على ظهرها، ويمنحها رزمة من النقود كلما زارته.

.. أسبوع كامل انقضى ولم يأت نادر.

".. لماذا؟ يريدني أن أصالحه؟ وهل خاصمته أصلاً؟!

لكأنه طفل.. أف!!"

الكولونيل بدوره افتقد نادر. تساءل عنه بلهجة تشي بمساءلة الزوجة والابنة عمّا إذا كانت إحداهما قد ساهمت بهذا الغياب غير الطبيعي.

".. لكأنني مسؤولة عن عائلته أيضاً!" هجست الأم، مع حرصها على الظهور بمظهر الحياد.

. أعتقد أنه في زيارة للقرية. قالت وفاء.

. في العادة يخبرنا أولاً. عقّب الكولونيل.

.. لم أذهب إلى القرية.. تفرّغتُ لدراستي. قال نادر لوفاء.

. لكنك دعوتني للسفر إلى القرية.

. لم أعد مشتاقاً لأحد.

".. الخبيث.. هل أقول له: أنت تكذب؟!".

وضعت وفاء الهديّة جانباً، واقتربتْ بإصرار. أغمضتْ عينه بيديها وقالت: إحزر من أنا.

. أنت عفريتة. قال وهو يحاول عضّ يديها بشيء من العتاب والرغبة.

ففركت أذنه وهي تكركر بالضحك.

. ما هذا؟ تساءل نادر وهو يحدّق بالهديّة المغلّفة بأناقة.

. جهاز تسجيل وأشرطة راقصة.

. لمن؟

. لكَ.

. لي؟!

. لنا.

وصعد الدم إلى وجهه كعذراء تغوي بالحب.

. افتقدك عمّك.

. عمّي فقط؟

. إي فقط.

. تكذبين.

ضحكتْ بسعادة، وضمتْ رأسه إلى صدرها، ومن ثم ذهبا سويّة إلى منزل الكولونيل.

مرّة اقترح الكولونيل أن يسكن نادر عندهم.

فعقّب نادر: اعذرني.. لا أستطيع يا عماه.

. ستكون كما لو في بيتك تماماً.

. أعرف. مع ذلك اسمح لي يا عم.

وسمح العم، لكن وفاء لم تسمح، حيث أن أحلامها بقيت تتعثّر بوضاعة غرفة نادر المأجورة.

"".. إنها تصلح للدعارة أكثر مما تصلح للحب". هجست وفاء بذلك ذات مرة ونهضت بما يشبه الخوف. كانت بين ذراعي نادر، فاردةً جسدها وأحاسيسها له، وداعية إياه للذهاب سوية إلى أبعد حدّ ممكن من الجنون. وكان يغالب شهوتيهما لارتكاب حماقة ما.

. مالكِ؟

. لا شيء.

بدا مرتبكاً خجلاً من لحظة صحوها المفاجئة، إلى أن قالت بما يشبه البكاء: لن نتزوج في غرفة كهذه.

غام وجهه، ثم انتزع ابتسامة ما، وربّت على خدّها بحنان وقال:

سنتزوج في أفضل غرفة نستطيع دفع أجرتها.. هذا كل ما أستطيع أن أعدك به..

".. وعود سومر أكثر إغراء بما لا يقاس". خطر ذلك لوفاء، وراح الشعور بالعداء تجاه سومر يفقد مذاقه شيئاً فشيئاً.

".. سأجد طريقة ما للاعتذار". كان ذلك آخر ما قاله لها من قبل. وكان عليه ألا يجعلها تنتظر طويلاً.

. أيعتذر عن محاولة تقبيلك؟! تساءلت سلمى وهي تقهقه ساخرة من "بلاهة وفاء" واستدركت: آه لو حدّثتِ نبيل بذلك!

. من نبيل هذا؟

. حبيب يا روحي.

. أتنويان الزواج؟

ـ ننوي الموت حبّاً.. أما الزّواج فهو حر.. إن أتى فأهلاً وسهلاً.. وإن لم يأتِ فمع سلامة الله.

. وتسمّينه حبّاً؟!

. الحب هو ما تقرره مشاعرنا؟ لا ما تقرره الأمهات يا صديقي.

. لكأنك من سكان المرّيخ!

. بل أنا من سكان هذه الأرض، التي لا تسمح لي بالحياة أكثر من سبعين سنة نصفها طفولة وعجز.

. من علمك ذلك؟

ـ قلبي يا طفلتي.. والآن سأبلغك أن سومر يعتذر فعلاً لأنه لم يُحسن تقبيلك، ويعتذر لأنه لم يصفعك على قفاك وأنت تمثلين دور الفتاة البلهاء، التي تنتظر أن تعلّمها أمّها الحب، وأن يسمح لها أبوها بخلع لباسها الداخلي أمام الغرباء.

. اخرسي سلمى.

. سأخرس يا روحي بانتظار أن يراك سومر في كازينو القط الأسود مساء غد.. الساعة التاسعة.. كم؟؟ التاسعة.. التاسعة.. سلام يا روحي.

ومضت سلمى تاركة وفاء شبه مذهولة.

".. أية وقاحة هذه يا سومر؟ أم أن سلمى أخطأت في نقل الرسالة؟ وأية رسالة؟ أم..؟؟ عموماً سأذهب نعم سأذهب غداً.. ولكن فقط لأغيظك يا سومر.

***

الفصل السادس

. كم الساعة الآن؟ تساءلت وفاء.

. الثامنة. أجاب نادر.

. استعد لسهرة جميلة.

. أين؟

. ما بين السماء والأرض.

. لنسهر هنا يا مجنونة.

. بل سنسهر بمكان يليق بحبّنا.

. الحب هو الذي يضفي القيمة على المكان وليس العكس.

. اترك فلسفتك في البيت، واترك لي حرية التصرف اليوم.

. كما تريدين.

في الثامنة والنصف مساء، استقلاّ سيارة إجرة في طريقهما إلى الكازينو، الذي كان رواده باستمرار يملكون فائضاً من الوقت والمال والرغبة، وحيث كانت الغوايات الصغيرة والكبيرة، السريّة والفاضحة، تتناسل هنا وهناك، مشكّلة مع الموسيقا الهادئة والأضواء الخافتة والديكورات الباهرة، متكأ للمشاعر المستثارة على الدوام.

. لا أحب مثل هذه الأمكنة.

. ستحبّها. أكدت وفاء بثقة. وتأبّطت ذراع نادر في طريقهما إلى الداخل.

.. فور دخوله، أحسّ نادر أنه يقفز في الفراغ. خمّن أن العيون المصوّبة تجاههما تسأله وحده إن كان قد قدم إلى هنا عن طريق الخطأ. حيث أن ثيابه التي أتعبتها العناية المزمنة، والتي تجاوزتها الموديلات الحديثة، لا تستطيع إقناع أحد بأن صاحبها من روّاد الكازينوهات، بل وقد تنفذ العيون البصيرة لتكتشف خواء جيوبه، ومن ثم تخمّن على وجه التقريب خواء غرفته، وصولاً إلى أنه من قرية اطمأنت إلى بؤسها، بعد أن عايشته طويلاً، وبشعور عال بالقدريّة والاستسلام. وأحس بالانقباض.

. مالك؟!

. لا شيء. بذلك أجاب وهو يجهد لضبط انفعالاته، وللتظاهر بالحياد تجاه كل مظاهر هذه النعمة، التي لا يدري كيف تبادره العداء!

".. من لا يحب الرفاه؟!" ذلك ما فكر به بحنق، وهو يخمّن أن ثمة وجبة واحدة في مثل هذا المكان يمكن أن تبتلع كامل مصروفه الشهري.

. طلباتكم يا سادة؟

. قهوة..

. بل وجبة خفيفة مع الشمبانيا إن سمحت. قالت وفاء مقاطعة، وهي توزّع ابتسامة واثقة ما بين النادل ونادر.

ابتسم النادل ابتسامة وظيفيّة، ومضى مدفوعاً بإيماءة من رأس وفاء، ليعود بطبق غنيّ وشهي إضافة للمشروب.

. قهوة؟! همست وفاء مستنكرة.

. لم لا؟! أجاب نادر بنبرة احتجاجية مرتبكة، شاعراً بالغيظ من ألف وخزة ووخزة، لم تفصح عن نفسها، ولا يدري من أين ولا كيف تأتي!

. بصحّتك. ورشفت نخبه.

عبّ كأسه دفعة واحدة في محاولة لتعويم نفسه.

أعادت وفاء ملء كأسه، وقالت محذّرة وممازحة: إذا سكرتَ سأفرك أذنك.

".. مع العرق أعرِف متى يجب التوقّف.. أما هذه اللعنة".

عندما كان يسمع بأسماء المشروبات الروحيّة المستوردة والباهظة الثمن،

وهي تُلفظ بتفخيم، كان يدرك أنه ليس معنيّاً سوى بدفع ضريبة استيرادها.

هنا الوضع مختلف، فالشمبانيا الفخمة تأتي بنفسها لتستفزّه عن قرب.

جاءت محمولة على نقود وفاء.

مراراً تحدّث عن المساواة بين المرأة والرجل، مثلما تحدّث عن ضرورة إسقاط هيبة النقود وسلطتها، لكنه الآن يبدو متشككاً بما يقوله هو ذاته عن المساواة. وآلمه أن تدفع وفاء فاتورة الحساب هكذا علناً.

ووخزه إحساس مرّ بأن ثمة عقداً غير معلن يزيحه إلى الخلف، فقط لأنه طفران.

قالت له وفاء ذات مرة، وقد اغتاظت من حساسيّته المفرطة تَجاه محاولاتها لتدفع عنه ولو ثمن تذكرة نقل داخلي: ألا تدرك أن إصرارك على لعب دور الذكر يهينني؟!

أربكته يومها. وجعلته يعتذر، ويصرّ على أن المسألة ليست كذلك. مع اعترافه الضمنيّ بأن أيّاً كان لا يستطيع أن يكون دائماً كما يحب أن يكون، وأن تحت جلده الكثير من الفطور التاريخيّة، التي لا يمكن التخلّص منها بالحكّ النظريّ وحده..

لكزته وفاء فانتبه. كانت المطربة الشابة شبه الثملة تدنو منهما بعينين نصف مغمضتين، فاردة ذراعيها العاريتين. إلى أن توقفت قبالتهما، فقرصت أنف نادر، وابتسمت لوفاء وهي تغنّي:

قليلاً من الخمر.. وقليلاً من شفتّي.. وتسكر أيّها الشقيّ.. تعال.. تعال لنجعل الحياة حلوة.. تعال.. تعال.. تعال.))

ومضت تترنّح.

ـ إنها تدعوك. قالت وفاء بخبث. وابتسمت وهي تلمح سومر يحييّها عن بعد بإيماءة لم تغب عن انتباه نادر.

. هي لا تدعو أحداً.. إنها تؤدّي وظيفة مأجورة.

بذلك عقّب نادر مناكداً. فقالت وفاء:

. كيفما كان الأمر.. غناؤها جميل وممتع.

. ربما.

وقدّرت وفاء أنها ربما أخطأت باصطحابه. حيث أن هذا ((الأرثوذكسي))

لا يستطيع الخروج من جلده. في حين كان نادر يجزم في دخيلته بأنه وُجد هنا عن طريق الخطأ فعلاً.

والتفتا كلاهما. فثمة صوت ثمل قد علا فجأة شادّاً انتباه الكثيرين:

. عندك حليب يا...

وكانت المغنية الشابة تنسحب متعثرة، وهي تجيب بصوت بدا وكأنه غير صوتها: عندي حليب ينسيك حليب أمك.

فزعق الثمل متلعثماً: بحياة أمك اسقيني.

ضحك البعض، والبعض صفّق بحرارة، كاسرين رومانسيّة المكان.

. ما هذا؟! تساءل نادر باستياء. فأجابت وفاء:

. نشازات تحدث من حين لآخر.

. كيف؟

. ناس أكبر من السؤال.

لاحظ أنها تتحدّث بلغة العارف والمتفهّم لكل ما يمكن أن يجري.

وكانت دماؤه الحارّة تقفز إلى صدغيه.

((.. سومر قال: هذه أمور طبيعية يمكن التكيّف معها.))

وصدّقتْ سومر.

((.. أمّا نادر فهو يريد الحياة خطاً مستقيماً وأخلاقياً! ما يتحدث عنه نادر أكثر جمالاً ورومانسية.. وما يتحدّث عنه سومر أكثر واقعية.. سومر يتفهّم الحياة كما تجري أمام أعيننا، ويتصيّدها بمهارة..

نادر لا يريد إلا حياة واحدة لم تكشف لنا عن وجهها بعد، ويرفض التصيّد.. نادر لا يعرف بوجود غير مباشر لشخص ثالث.. الأفضل ألا يعرف.. غيرته ريفيّة محضة. سومر لا يغار.

يقولون: الغيرة دليل الحب.

أحبُّ غيرة نادر.. تثير في كل أحاسيسي الأنثوية، لكنها غيرة معذّبة.

سومر سلس كالشيطان.. دونجوان حقيقي.. يحب دون فلسفة.. دائماً على استعداد للغرق في الحب.. أيّ حب.

نادر لا يحب إلا على كيفه.. يتحدث عن نظافة الإنسان، ونظافة

المشاعر و.. الخ من فلسفته التي أستثقلها أحياناً، بقدر ما تسحرني أحياناً أخرى.

سومر فنّان بإيقاظ غرائز المرأة..

ونادر فنّان بإيقاظ روح المرأة..

لماذا لا يختلط سومر بنادر؟

لماذا لا يحق للمرأة أن تتزوّج من اثنين معاً؟))

. لستِ معي. قالت عينا نادر بعتاب.

. لا تتركَني وحيدة. قالت عينا وفاء، وهي تبتسم بحياء، وتقدّر أن فيلسوفها الصغير هذا يمكنه النفاذ إلى أعماقها.

كان سومر قد برز منذ حين إلى حلبة الرقص، مخاصراً الواحدة تلو الأخرى. تعرّفت وفاء على بعضهن حيث سلمى ويسرى و.. و.. ووضعت يدها على قلبها. فها هو وبخطوات بارعة ورشيقة ينسلّ ويتوقف أمامها هي، ينحني نصف انحناءة، ويمدّ لها يداً أرستقراطيّة مليئة بالحلم والوعد والجنون اللذيذ. فخفق قلبها بعنف.

والتفتت إلى نادر، الذي كان يشملهما بنظرة باردة، ذلك البرود القاسي، الذي فهمته وفاء جيّداً، فاعتذرت لسومر بلباقة مترفّعة، وهي تغالب إحساسها بالضعف.

وقرعت كأسها بكأس نادر، وتشاغلت قائلة:

. قلت لأبي أننا ذاهبان إلى السينما.

. لو سألني لقلت: بل ذهبنا إلى الكازينو.

. لماذا؟

. ما مبرر الكذب؟!

. الحمد لله أنه يثق بي ولن يسألك.

. أنا لا أثق بك بنفس المقدار.

. حقاً؟!

. وحياتك.

حالماً أقسم بحياتها غفرت له. ((.. لا نستطيع إلا أن نحبّ من يحبّنا

بصدق)). بذلك همست بارتياح، وابتسمت بحب لجديّته وغيرته، وبدا لها كما تشتهي أن يكون.

وامتلأت عيناها بذلك الوميض النداء الذي يعرفه جيداً، والذي يغفر لها كل حماقاتها، والذي يحيله إلى مجرد عاشق لا يستطيع سوى الاستسلام لألق هاتين العينين. فأغمض عينيه على رؤى دافئة، تاركاً أصابعه تلملم يدها، لتقول لها ما لا يمكن قوله.

وارتعشت اليدان. وكان ثمة قلبان يخفقان برضى، ويقرران أن للسهرة بقيّة، وأنّ غرفة نادر هي أفضل مكان لحبيبين في عزّ الحب.

***

(الفصل السابع)

قُبيل الزواج لم تُبحث مراسيم العرس. فقط تم تحديد الموعد. والكولونيل لم يدعُ أحداً، لكن زوجته أصرّت على دعوة الكثيرين، إضافة لأبي نادر وزوجته من الريف، وبواسطة بطاقات أنيقة.

أم نادر رفضت الدعوة، بل اعتبرتها مهينة. في حين أصرّ أبو نادر على الحضور قائلاً: الواجب واجب يا امرأة.

وفكر باستغلال الفرصة للبحث في مشكلة نادر، وكيفية تحريك قضيّته مع الحكومة.

الكولونيل فوجئ بكثرة ونوعية المدعوّين، مع ذلك كتم غيظة، واستسلم لترتيبات زوجته مع ذوي العريس. حيث التقوا جميعاً في مطعم الواحة الخضراء المحجوز سلفاً.

وهناك ضاعت الطّاسة، فصخب الموسيقا، وإغراء الطعام، ونشوة الشراب، وجنون الرقص، وصدى الضِحكات الثملة، طغت على شجون من اعتقلتهم الشجون، وغيّبتْ دكنة نظرات الكولونيل، التي راحت تلاحق صهره سومر بامتعاض، وهو يستعرض فروسيّته أمام جوقات الشباب والشابات المتشابهين جدّاً، والغارقين حتى الجنون في تلاوين الرقص الشرقي والغربي.

أخيراً كادت الخمرة أن تخرج الكولونيل عن طوره، عندما اقترب سومر وقد تعتعه السكر، ليخاصر عروسه، طالباً منها مرافقته، لكأنه يسرقها وإلى الأبد،

وسط قهقهات مجّانية ثملة تصخب من حوله. لكن وجه وفاء الحيادي أوحى إليه أنها باتت أشبه بجرم سماويّ صغير اختار أن يدور على هواه في مدار ما، وفق سنن طبيعية، قد لا تكون له علاقة بها. فكبح نفسه.

وحين ودّع العروسين، حاول أن يودّع معهما كآبة بدت غير مبررة في حينها. وتحرّك كقطعة صخر جبليّة، متقدّماً زوجته وآخاه نحو البيجو.

وفور وصوله ارتمى على المقعد كجنديّ أنهكته معركة طارئة.

واتكأ بيديه ورأسه على المقود، إلى أن أغلقت زوجته باب السيارة، وسألته بحذر: مالك؟!

وحدها البجعة أجابت بزنخرة محركها، منطلقة بركابها الثلاثة عائدة إلى المنزل.

في حين كان أبو نادر يشتم أخاه في سرّه، ويشتم هكذا مصاهرة، ويلعن زمن المخنثين.

في اليوم التالي حاول أبو نادر عبثاً أن يفهم كيف سيتصرّف إزاء قضيّة الأرض المشتركة، ومن ثم اقترح عدّة اقتراحات لم تلقَ إلا الإهمال. مما اضطره للانكفاء، منتظراً الفرصة المناسبة لطرح قضيّة نادر.

وعندما قطع زيارته مغتاظاً، وركب أول سيارة في طريقه إلى القرية، لم يصدّق أن أخاه الكولونيل بالطول والعرض لا يستطيع أن يفعل شيئاً لنادر، وراح يردّد بخيبة ومرارة مقولةَ زوجته: ((لو كان عند الكولونيل دم لتحرّك دون أن ينخسه أحد.))

أم نادر لم تفاجأ بالعودة السريعة لزوجها، ولا بخيبته.

ولم تسأل عن عرس ((.. الدلّوعة التي خرّبها الدلال.))

فقط سألت زوجها إن كان جائعاً، لتقديرها بأنهم أهملوه هناك ولا شك. بل راحت تعدّ الطعام دون أن تنتظر إجابته، لاعنة المدنية وأهلها في سريرتها. مع ذلك كانت تنتظر أن يحدّثها زوجها بشيء ما عن نادر. وراحت تبربر محدّثة نفسها بغيظ واضح: ((.. المائعة.. الحمقاء.. أية عمياء قلب هي؟! حذاء ولدي أفضل منها.. مع ذلك جرحته اللئيمة.. جرح القلب لا يندمل حتى لو جرحته كلبة.. من لا يعرف هذا؟!...))

. بم تبربرين؟!

. لا شيء.. ذهابك لم يكن ضرورياً.

. ذهبت، وعدت، وها أنذا. فعلام كل هذه الثرثرة؟!

. ثرثرة؟! يحتقروننا ونتمسح بهم!!

. اخرسي يا امرأة.

مسحت أم نادر أنفها وعينيها بحركة نزقة، ثم سألت بصوت مشروخ وحنون: ألم تعرف شيئاً عن نادر؟

احتقن وجه الزوج، فرمى اللقمة من يده، ونهض خارجاً.

تمنّت لو تقول له: عُد .. عُد أرجوك.. اعذرني فأنا أم.

لكنها بقيت صامتة وواجمة.

وجاءت ((الدلّوعة)) لتفرض نفسها على دماغ أم نادر.

جاءت جنباً إلى جنب مع نادر. زيارات.. مشاوير .. صور مشتركة.. ضحكات من القلب..

((.. اللعينة ما أجملها! مع ذلك شيء ما فيها لا يريحني.. أليست مستهترة يا ابني؟ ثم لماذا كل هذا الغرور؟! أنا لا أحبها؟! أعوذ بالله.. من أجلك يمكنني أن أحب أيّ شيء..))

((.. إعقلوا.. إعقلوا.. الناس تلوككم.. مجنون ومجنونة، والقرية صغيرة، ثم لماذا كل هذه الخلوات؟! ألا تستحون؟!

تزوجتُ أباك دون أن ينفرد بي ولو مرة واحدة.. أتسخرون مني؟ اضحكوا.. اضحكوا.. ليسعدكم الله..))

((.. وفاء، لماذا يريد أبوك بيع الأرض؟ الأرض لا تباع يا وفاء.. قولي له ذلك. أبوك لا يعرف قيمة الأرض.. عندما تزورونا الكل ينظر إليكم على أنكم أولاد الضيّعة.. دون أرض ستبدون غرباء.. صدقيني يا وفاء.. والحياة ما دامت حتى لأبي زيد الهلالي.. بكره يتقاعد أبوك، تعالوا عمّروا هنا.. سنفرح بكم.. لا تحبون القرية؟! أفسدتكم المدينة .. أعرف)).

وتجّهم وجه أم نادر. ((فالدلوعة تحوّلت إلى شيطان.. إلى شخص كريه وبشع.. رفست نادر، ومضت كخنزيرة بريّة.. ككلبة تحنّ إلى قطيع الكلاب الضالة.. تفه.. علام تحزن يا نادر؟! إنها ليست أكثر من جيفة..

ما رأيك بمريم؟ خديجة؟ يا ربي كم تحبك نهاد!

طيب.. ثناء ابنة أوادم ومتعلمة..

أنت عنيد.. عنيد ابن عنيد.. لا تعرف مصلحتك.. أنت حر.))

جرحته اللعينة.. قلبي لم يطمئن لها أبداً.. ليفجعها الله بقلبها.. وليجعل عرسها مأتماً.)).

***

(الفصل الثامن)

((..بول السماء الضحل هذا لن يروي أرضاً. يا رب. أستغفرك.. لمن تخبئ أمطارك؟!))

ذلك ما غمغم به أبو نادر بقلق، وهو يحسب توزع الأمطار ونسبة هطولها طوال ما مضى من فصل الشتاء ويحدّق بالغيوم القليلة المسرعة إلى مكان ما، ويرقب السنابل الصغيرة العجفاء، وهي تتطلع مثله إلى سماء أكثر رحمة.

وبلحظة غضب، تأمّل قطعة الأرض المعروضة للبيع منذ فترة، بأحجارها وأشواكها، بقفرها المخيف، ودمدم: يستطيع الإنسان أن يبيع أمّه إذا كانت عاقراً.))

ثم يتذكر أنها لم تكن كذلك: ((.. كان والدي الحاج إبراهيم . رحمه الله . يهدهدها كامرأة، يروح ويجيء دون كلل، يزرعها عرقاً وتعباً، فتفور بالقمح والقطن والخضار. يسوقنا أمامه، يوزّعنا فيها، نعطيها أجسادنا الصغيرة، أكفّنا الغضّة، وجوهنا الطفلة، وتعطينا خبزاً وأحلاماً.

عماد، طوال حياته لم يكن قانعاً بذلك. بل لم يقتنع يوماً بأننا نعيش كالبشر، خلال دراستنا الثانوية قال لي: ما الفرق بيننا وبين أحصنة الجرّ؟!

وقال: المدينة حياة أخر.

أنا بدوري أحببت الحياة الأخرى. لكنني أخفقت في ركوبها، فعدتُ إلى القرية لأعمل مع أبي، نبيع الموسم، نشتري حاجاتنا مرة واحدة، ونحمد الله.

عماد لم يحمد الله، وأصرّ على الهرب إلى المدينة ليصبح ضابطاً. في البدء قلق الحاج إبراهيم، ثم أصبح فخوراً بنجوم ابنه التي "تضيء كتفيه"، ومن ثم "تضيء القرية" كلما أتى، على حدّ قوله.

كان يتأبط ذراع "النجوم" ويزور برفقتها أغلب بيوت القرية. أنا أيضاً بهرني. ومن ثم بت أزداد قناعة، خاصة حين يعمّ الجفاف، بحكمة عماد، الذي لم يعد معنيّاً بالجفاف كما قدّرت. إلى أن جاءني وعيناه تلمعان. قال: إننا نفكر بكم.

قلت: من أنتم؟

ضحك عالياً، وقال: المسؤولون.

((.. الله الله يا عماد! طوال عمرك جاد وطموح.. أأصبح لك ضلع في المسؤولية؟!))

تساءلت بفرح غامض: كيف؟

فأجاب: سنخلّصكم من الجفاف.

لم أكن أفهم علاقة الجفاف والخصب بالمسؤولين.

كانت العلاقة الوحيدة الواضحة بالنسبة لي، هي علاقة الأرض بالسماء وحسب.

لكنه أكد لي أن قناة من الفرات يمكن أن تصنع جنّة على الأرض.

باعتزاز طاغ رحت أوزّع الخبر على الفلاحين، وأمل مجنون أنعشنا جميعاً.

تاركاً الوجوه اليابسة تورق إلى حين.

((.. فكرة القناة عُرضت للدراسة.))

((.. فكرة القناة دُرست جيّداً.))

((.. كثر عدد المقتنعين بجدواها الاقتصادية.))

((.. القناة لم تعد مجرد فكرة.. نزلت على الورق.. دخلت دائرة التخطيط.))

((.. هناك بحث جديد معمّق حول القناة.))

((.. ثمة دراسات فنيّة وماليّة للقناة.))

((.. أبشروا.. التنفيذ قارب قوسين أو أدنى.))

والفلاحون، والأرض العطشى يدعون الله أن يوفّق المسؤولين، ويلهمهم سرعة الإنجاز.

وانفجر حزيران..

قتل أجمل أحلامنا.

وعدنا نتطلّع إلى السماء. وبدا كل شيء أسودَ أسود.. حتى السماء!

وجئتَ يا عماد، جئت منكّس الرأس كامرأة زانية.

التفّ الجميع حولك بعيون مذبوحة. كانوا بحاجة إلى رجل حكيم، يقول لهم شيئاً، يعدهم بمعجزة.

لم يكن لديك إلا شتائم بذيئة للرجعية والصهيونية والإمبريالية.

الفلاحون لم يكن لديهم إلا ألسنة أتعبها الدعاء.

شاركوك الشتائم بعض الوقت، ثم انسحبوا واحداً إثر الآخر إلى أرض لا تُروى بالشتائم.

بعدئذ لم يطل بك الوقت لتسألني: كيف الحياة في القرية؟

قلتُ لك: ليست بخير.

قلت: أليست ممكنة؟

((ها؟! أتفكر بالانسحاب إلى القرية يا عماد؟!))

لم أقل شيئاً. يومئذ كنت أستعين بقطعة أرضك. لم أقل لك إن القطعتين لا تسدّان عوزي.

بعد سنوات قليلة أتيت خصيصاً كي تسألني ذات السؤال!

فتشجّعت وقلت: مستحيل.. لكنك تستطيع بيع أرضك إن شئت.

قلتَ وأنت تبتسم بمرارة: لا أفكر بذلك. وغادرتني مسرعاً إلى المدينة.

لن أظلمك .. طوال عمرك لم تكن سيئاً. الآن .. لا أعرف ماذا أقول.. أنت تدرك أن مشكلة نادر تنغّص حياتي.

وأمّه .. هل رأيتها وهي تقوقئ كالدجاجة من حولي؟ هل رأيتها وهي تبكي بصمت يجرح القلب؟ وهي تحدّث نفسها كالمجنونة؟

ثم .. ألم تساهم بتربيته؟ ألست أنت الذي اخترت له اسمه؟

ألا تـذكر؟ أرادت أمـه أن تسـميه أحمـد، واقترحـت أنـت أن نسـمّيه نـادر، فوافقنا إكراماً لك.

فيما بعد، أنجبت وفاء، ورغم مشاغلك الكثيرة. اتّسع وقتك لمداعبة الطفل نادر قائلاً له: خلّفتُ لك عروساً يا عكروت.

قد لا يحق لي الاعتراض على زواج وفاء، فهي حرّة، برغم اعتقادي أنها مخطئة وأنت.. لم أسألك عن موقفك. ولن أسألك.

عموماً هذا أمر انتهى. فها هي وفاء تُزفّ إلى أهبل.

لكن ليحرمني الله نور عينيّ إن كنت قد فهمت شيئاً عن سبب انكماشك خلال حفلتكم اللعينة تلك.

إذا كنـتَ مسـتاءً، أو لا أدري مـاذا أقـول، فعـلام توافـق علـى مصـاهرته أصلاً؟

ألم تجد غير ذلك التافه بديلاً لنادر؟!

أم هي أمّها، المغرمة بالحفلات والموديلات والبهرجة؟

على كل حال.. لم تطلبوا نصحي، وأنتم أعلم بأموركم.

لكن اعذرني إذا قلت لك: أنت تغيّرت، وأنا لم أعد أفهمك يا عماد.

حتى ابتساماتك باتت تثير حنقي أو إشفاقي. خاصة وأنها لم تعد تمتّ بصلة لضحكاتك القديمة المليئة، تلك التي لا تزال رائحتها عالقة بالأرض.))

***

(الفصل التاسع)

عرس وفاء بقي محور حديث القرية لأيام عديدة.. فالعروس ابنة كولونيل، وبرغم أن كبار السن يعرفون والدها على أنه عماد وحسب، فقد باتوا يشككون في أنهم عرفوه بما فيه الكفاية. ذلك أن عماد الكامن في ذاكرتهم، كان مجرد ولد شقيّ، ينطّ مثل بندول الساعة من مكان لآخر، يتزعّم عصابة من الأطفال، ليسرق المشمس أو العنب أو.. ويهرب بخفّة الشياطين.

وكان أبوه . الحاج إبراهيم . الذي لم يحجّ إلى أي مكان، وبرغم عدم ثبوت الأدلّة ضدّ ابنه، يؤنبّه بقسوة، بل ويصفعه أمام الناس، مهدّداً إياه بالكيّ بالنار إن عاد لشيطناته.

وهو قد شبّ مثل الآخرين، لدرجة لا يمكن معها تمييزه عن سواه.

وحتى عندما بات يزور القرية ببزّته العسكرية، وبنجومه اللامعة. وبنياشينه التي بهرت الجميع، ليصافح أهل قريته يداً بيد، ويحدّثهم أحاديث عاديّة، يظل يحمل سرّاً ما، لدرجة أحسّ معها بعضهم أنه هبة الله للقرية. وأنه يشكل لها نوعاً من التعويض عن آلامها. وبالتالي، بدؤوا يبثّونه همومهم وشكاواهم.

كان مجرد إصغائه لأحاديثهم يفرحهم، وباتوا يتوقّعون من حين لآخر أن يقوم بما يشبه المعجزة، قالباً القرية رأساً على عقب، ليجعل منها ما يشبه المدينة. خاصة وأن فيها قبر أبيه وجدّه وجدّ جده، وفيها أهله. بل هو نفسه قد يفكر ذات يوم بالعودة إليها، ليعيش فيها بقية أيامه، بعد أن يخلّف من صُلبهِ أكثر من كولونيل.

وحين فجّر أبو نادر خبر قناة الريّ من الفرات إلى المنطقة المحيطة بالقرية، اعتقدوا جازمين أن قريتهم بالذات هي المعنيّة الأولى بالقناة، وأن ما سيفيض عن حاجتها فقط يمكن أن يوزّع على بقيّة المنطقة.

آنئذٍ لم يعرفوا كيف يعبّرون عن فرحهم، فالفرحة أكبر من قدرتهم على استيعابها وتمثّلها.

ورغم أن كلاً منهم وقف على مصدر الخبر، واستمع إلى تفاصيله، إلاّ أن أغلبهم لم يفهم كل التفاصيل المعقّدة لهذه المسألة.

هناك شيء واحد فهمه الجميع، وهو أنّ هذه الأرض التي بدأ الجفاف يشقّقها، سترتوي حتى الثمالة، وستصبح كامرأة بضّة.

وعندئذ سيطالبونها بأضعاف ما يعطونها من عرقهم ودمائهم، وستعطيهم حتى تتخمهم، وستمتلئ بيوتهم بالغلال، وأمسياتهم بالمواويل والعتابا، وسيكثرون من الأعراس والأفراح بالتأكيد. وكل ذلك سيكون "بفضل الكولونيل أدامه الله".

آنئذٍ أجمعت القرية، بما فيها كبار السن، وبرغم كل ما اختزنته ذاكرتهم من صور سابقة وحقيقية لعماد، على أنه ليس رجلاً عادياً على الإطلاق. بل إنّ قابلة القرية، والتي تجهل القراءة والكتابة، أقسمت، وهي موضع ثقةٍ، أنها رأت بمنامها، عماد، وهو يركب حصاناً أبيض، ويعتمر تاجاً فريداً من الذهب ومعادن ثمينة أخرى لا تعرفها، ويقف على أهبة الطيران إلى أمكنة عجيبة. وأقسمت أيضاً أن هناك تفاصيل أخرى مذهلة نسيَتْها، لأن نومها لم يكن ثابتاً.

ورغم لوم الكثيرين للقابلة على طبيعة نومها المتقلّب، والتي فوّتت عليهم

معرفة الكثير من التفاصيل، إلا أنهم بدوا راضين عما استطاعت تذكّره. حيث لم يكن لديهم حاجة لتفسير الحلم، فهو أوضح من أن يُفسَّر.

من كان يدري أن حزيران سيشطب أحلامهم، ويفسد أفراحهم ويلوّث رؤاهم، بتلك الدرجة من القسوة؟!

كانوا يعتقدون أن النصر مسألة محسومة، يؤخّرها الروتين اللعين، كما يؤخّر رسالة بسبب تقاعس مؤقّت من هذا الموظف، أو كسلٍ من قبل ذاك. مع اليقين الثابت بوصولها.

ورغم قناعتهم بأن الرسالة يمكن أن تضيع أحياناً لصغر حجمها أو تفاهة شأنها، فهم مقتنعون تمام القناعة بأن النصر يستحيل أن يضيع، لأنه ببساطة، أكبر وأجلّ من أن يتعرّض لذلك.

في البدء لم يصدّقوا ما قاله المذياع، ثمة خطأ غير مفهوم.

خطأ فادح ومؤقت، وسيتبدّد كمزحة سخيفة.

وجاء عماد.. بكل عنفوانه جاء. لكنه هذه المرة بدا مُتعَباً مُتعَباً.

يومئذ لم يشأ أن يجتمع بأحد، أو أن يتحدّث إلى أحد. بل آثر الصمت والوحدة. في حين اجتمع أهل القرية، وجميعاً انتظروا أن يلتقوا به، وأن يقول لهم شيئاً مهمّاً، لا بل شيئاً خارقاً.

وأقبل عماد ليتحدّث مُرغماً.

كان أشبه بالمرأة المغتصبة، الموزّعة ما بين قهرها وخجلها.

بمرارة أكّد أن الهزيمة واقعة، وبمرارة أكبر، راح يشتم الرجعية والصهيونية والإمبريالية.

لم يستطع أكثر أهالي القرية تشخيص أولئك الخصوم، ولا تشخيص ما يجب فعله، فانسحبوا الواحد إثر الآخر وكلّ يحاول أن يفهم كيف أن النصر ضاع كما تضيع الرسالة!

ومن ثم هجسوا بأن حزيران قد لا يكتفي بابتلاع قناة أحلامهم، بل ربما يبتلع الفرات نفسه. وأغمضوا عيونهم على ليلة كابوسيّة، وأحلامٍ بلون الأرض المتشققة الموجوعة.

ومن ثم عادوا يرتّبون حياتهم من جديد، يوزّعونها ما بين تعبهم المألوف، ورجاءٍ ذليل بحياة أقلّ إذلالاً.

بعد أشهر قليلة من ذلك تزوّج الكولونيل، محاولاً إعادة شيء من التوازن لروحه القلقة.

القرية لم تعتبر ذلك الزواج أمراً غير عاديّ. استقبلته كما تستقبل نشرات الأخبار المكرورة.

النسوة كن أكثر حماساً للمسألة. فالزواج والطلاق والموت والولادة كلها أمور تستحق بنظرهن التوقّف عندها أيّاً كانت الظروف، لتتفرّع عنها أحاديث لا حصر لها، يملأن بها أمسياتهن الفارغة.

تساءلن: من هي العروس؟ كم عمرها؟ ما قدر جمالها؟ ما طولها؟ ما لون عينيها؟ أنحيفة هي أم سمينة؟ ما درجة تعليمها؟ وتوقفن طويلاً عند: ابنة من هي؟

وعندما علمن أن أباها من كبار تجّار العاصمة، تساءلن عن نوع تجارته وعن حجم ثروته، وهل طالته يد التأميم أم لا؟

ومن ثم رحن يتحدثن عن الدنيا كم هي واسعة وغنيّة وجميلة، مع التحسّر على حظ قريتهن القليل.

أما يوم سمعن بولادة وفاء، فهن لم يستطعن إخفاء أسفهن، لولادتها على صورة بنت. مع تمنياتهن بولادات أخرى لصبيان يكبرون بسرعة ويتجاوزون علوّ شأن أبيهم.

أما حكاية أن زوجة الكولونيل، ولأسباب مرضيّة، لم تعد تستطيع الإنجاب، فهي غير مقنعة، وغير مقبولة بالنسبة لهن.

إذ أن مثله يستطيع الزواج بأكثر من امرأة خصبة وولود.

بل إن قريته نفسها على استعداد لترشيح أكثر من عروس له.

لكن ومع تتالي رتابة الأيام وقسوتها، تراجع هذا الهم، وسقط مع هموم أخرى صغيرة ولا متناهية، يحلّ بعضها محل بعض، مخلّفاً ثرثرات واجتهادات لا يحتاجها ولا يطلبها أحد.

وسرعان ما كبرت وفاء، التي بدأت تأخذ طريقها إلى القرية، ومن ثم إلى أفواه النسوة في أماسيهن الطويلة، بل وإلى أفواه وعيون الشباب أيضاً، المبهورين بذلك الجمال المديني، وهو يغزو القرية من حين لآخر، تارة برفقة الكولونيل وزوجته، وتارة . ويا للعجب . بمفردها، أو مع ابن عمها نادر. حيث يسيران معاً كعروسين ملء شوارع القرية الفتيات بدورهن حسدنها، لا لجرأتها فحسب، بل ولتسامح الناس معها بكل هذا القدر. إذا لو كان الشأن شأنهن لوجدن الأمهات يمزّقنهن وبأسنان كلبيّة، ناهيك عن الآباء والأخوة والأعمام و.. و..

مما يضطرهن عادة لتسريب أغلب مشاعرهن عبر أحلام سرّية مجنونة ومضنية: وبعضها عبر قنوات أكثر سرّية وتعقيداً.

مع ذلك فهن جميعاً يتحدّثن عن وفاء كما يتحدثن عن شخص مختلف، لا علاقة له بحياتهن وقوانينها، تتفرّد عنهن بكونها ابنة كولونيل، مما يخمد كل التقوّلات المحتملة، وبسرعة.

ولئن كان زواجها بحدّ ذاته حدثاً مهماً، فالأهم في نظرهن هو ما قيل عن مجريات العرس، أن المأكولات والمشروبات التي قُدّمت للمدعوّين، والتي لا يعرف أهالي القرية طعمها ولا أسماءها، قد يعادل ثمنها أضعاف ثمن أحسن موسم زراعي في القرية.

أما الحليّ التي تنعّمت بها العروس فهي تذكّر بكنوز الملك سليمان، ناهيك عن الثريّات والأرائك والمفروشات و.. و.. التي تحمل كبرياءها الخاص وتستطيع أن تبهر أيّاً كان، والتي نسجت الصبايا حولها الكثير الكثير من

الحكايات الشائقة والمثيرة، لكأنهن يتحدّثن عن عوالم ألف ليلة وليلة، التي لم تعد مجرّد أساطير تنام على أوراق عتيقة، تدغدغ المخيلات وتجمح بالأحلام، بل وقائع تسير حتى في الطرقات عبر مساراتها الخاصة وكينونتها الخاصة، بعيداً بعيداً عن متناول العامّة.

***

(الفصل العاشر)

((.. المشاكل الخاصّة ما هي إلاّ تفريعات للمشاكل العامة.))

مراراً غصّ الكولونيل بهذه المقولة، ونادراً ما تلفّظ بها مرة قالها لأخيه أبي نادر في معرض الحديث عمّا يمكن فعله إزاء مشكلة نادر.

أبو نادر الذي لم يفهم تماماً أبعاد هذه المقولة، أو ربما لا يريد أن يفهمها، لم يعقّب آنذاك بشيء، فقط فكّر بأسى أن عماد مجرّد كولونيل عمومي، وانطوى على خيبته، في حين كانت الخيبات تتوالى وتتراكم في حياة الكولونيل الخاصة منها والعامة، دافعة ذاكرته للاصطدام يوماً إثر يوم بأخطر مفاصل تاريخه.

((.. لماذا لا أكتب مذكراتي كطلقة أخيرة؟؟))

لم تكن الخاطرة جديدة، مراراً راودت الكولونيل، ومراراً أسقطها من حسابه كلعنة جديدة لا يحتاجها.

نعم لديه الكثير مما يتذكره، ولديه ملاحظات مدوّنة كثيرة.

كم طالعها سرّاً! وكم آلمه استرجاع ملابسات تلك المرحلة المعقّدة المفتوحة على احتمالات لا حصر لها!

قد تُدَّقُ عنقُه لو حاول. هو يعرف ذلك جيداً. ولعلّ ذلك من أهم أسباب

تأجيله أو مماطلته لمشروع الكتابة.

عندما قُرِعَ الباب أجفلَ الكولونيل، لكأنه على وشك أن يُضبط في مشروع الكتابة إياه.

لكن امرأة ريفيّة شابة ظهرت هكذا. بكل بساطتها، وبلا استئذان.

ومن خلفها بدت أم وفاء، التي أطلّت فقط لترسل ابتسامة ساخرة، ثم مضت، مما جعل الكولونيل يصرّ على حسن الاستقبال، رغم أنه لم يستطع تذكّر اسم هذه المرأة. ((.. خديجة.. علياء.. فاطمة.. أو اسم مِن هذا القبيل..))

شابّة بأحلام مجنونة، رفضت أن تبقى مجرّد فلاّحة، تلهث خلف الدّواب والأولاد. يسرقها التعبُ نهاراً ليلقيها شبه جثة ليلاً، مع فحل ريفيّ متواكل، لا يحسن إلا الشتائم واغتصاب زوجته.

((..خذني إلى المدينة لنعيش مثل البشر.. الله يخليّك.))

ذلك ما قالته لزوجها ذات يوم، وهي ترفع سروالها بعد أن أيقظها ليضاجعها، دون أن يأبه لمشاعرها التي بقيت نائمة في دخيلة جسدٍ موطوء ومهان.

هل كانت تحلم بالمدينة عندما أيقظتها حركاتُه الجنسيّة الملحاحة؟

وأية مدينة تلك التي كانت تحلم بها؟

أم أنها شهوة المغامرة، التي أيقظها العجز والخواء؟

هي نفسها لا تدري.

يومئذ ضحك زوجها ضحكة ارتواء، غير عابئ بما قالته أو يمكن أن تقوله زوجتُه الجميلة.

بل فكر للوهلة الأولى أنها تمزح. دون أن يفطن لأحلامها.

لكن المدينة بدأت ترد إلى ذهنه مع الأحلام العنيدة لزوجته.

إلى أن رآها ذات يوم متجسّدة بامرأة.

ما عاد يتذكّر إن كانت كاملة الأنوثة، لكنه يتذكر جيداً كيف استيقظ خجلاً من سرواله المبلول.

فيما بعد صار يتعمّد البحث عن المدينة الأنثى، يُغمض عينيه، ويجهد لاستحضارها، وقبل أن يسرقه الشبق، يغتصب زوجته وهو مغمض العينين.

كلمة واحدة من الكولونيل، ونسكن في المدينة. قالت له ذلك بنبرة متوسّلة، وهي ترفع سراولها بعد أن شبعت استسلاماً.

. الكولونيل؟! تساءل كمن ينظر بغرابة إلى شيء غايةً في البعد.

ـ نعم الكولونيل.. إنه ابن قريتك.. أنسيت ذلك؟! يستطيع أن يجعل منك أكبر موظف في المدينة لو يشاء.. حاول.. ما الذي ستخسره؟

يتذكر الكولونيل جيداً كيف زاره ذلك الريفيّ. كيف لم يتجاسر على الجلوس فوق الكنبة الوثيرة إلاّ بعد رجاء صارم! كيف تأتأ وفأفأ قبل أن يتمكن من الإفصاح عن غرضه! وكيف أيقظ في الكولونيل مرارة الإحساس بالمسؤولية عن كل أولئك الذين فشل في صنع جنّتهم. برغم أنهم أنفسهم لم يصدّقوا يوماً أنهم موضع اهتمام جدّي من قبل أحد.

وكانت غاية أحلامهم أن يوفر الله لهم أسياداً طيبين.

. كلكم تريدون هجر قراكم.

قالها الكولونيل بنزق. ثم شعر بعقدة الذنب. وهو يرى ابن قريته يتلعثم بكلمات مرتبكة، بالكاد يفهم منها أن زوجته هي التي ورّطته بذلك، وأنه لم يشتكِ يوماً من الفقر، وأنه لن يغفر لزوجته.

مما اضطره لتهدئة روع ضيفه، مع وعد بالبحث عن فرصة عمل له.

.. نادراً ما كان يعد بمثل ذلك.

((... يجب تحسين ظروف الريف، لا تهجير الفلاحين إلى المدينة.))

ذلك ما كان يردده في العادة مع آخرين طواهم الموت أو.. أو..

كانت المرأة لا تزال تتيه بحركات عشوائية، غير عارفة من أين وكيف تبدأ حديثها.

أصابعها لم تهدأ أبداً، ونظراتها تروغ في رحلة شاقّة ما بين الأثاث والصور الجداريّة. فأومأ لها الكولونيل مشجّعاً.

. عمي عماد.. أنا خجلانة منك.

. لا تخجلي يا ابنتي.. قولي ما تريدين.

ـ من قبل تفضّلت علينا بتوظيف زوجي.. لكن .. أرجوك.. أجبره الآن على العودة إلى الضيعة.

حدّق الكولونيل في العينين الريفيتين الواسعتين. رآهما الآن أكثر جرأة وحرية. لم تطرقا. بقيتا رحبتين كبيادر الضيعة. فابتسم مشجعاً.

وعيناه تتأملان بإعجاب ((بساطتها المعقّدة)) مما جعل جفونها ترف بسرعة لكأنها تطرد شبح مخاوف طارئة.

. إلى الضيعة؟! تساءل بدهشة، وهو ينتشل نفسه من دبق نظراتها.

ـ الضيعة أحسن. أجابت، وعيناها الممتلئتان بالخيبة تتكسران هذه المرة، مع إطلالة دمعة قاسية مسحتها بسرعة.

ولمح آثار كدمة قرب عينها اليسرى.

وعاد صوتها المشروخ يتقطع. مع رغبة عارمة ومكبوتة بالبكاء.

. أنا السبب.. لكن.. زوجي حمار ولا مؤاخذة و.. لا يهمه الأولاد.

ولا أنا.. وأمس قال لي: من اليوم اعتبري نفسك مثل أختي.))

تصّور يا عمي.. قال أخته قال.. مع ضرب وحرمان و..

يقهرني كل يوم، وأمام أولادي المرعوبين!

أقول له: عيب.. لا تشمّت الناس فينا.

لا يسمع ولا يفهم. أخجل أن أُسمع صوتي للجيران، لكن الأمور زادت عن حدَّها. والمصيبة أنه أحياناً يشرب العرق حتى السكر ويبكي!

أنسى قهري، وأشفق عليه.

أقول له: يا بن عمي إرجع إلى عقلك وإلى زوجتك وأولادك.

فيسبّني ويسبّ أولاده، يسبّ أمه وأباه ((ويسب.. أستغفر الله..))

كانت مقتنعة تماماً بقدرة الكولونيل على فرك أذن زوجها، بل وحتى رفسه وطرده إلى القرية بسهولة، أمّا حين ماطلها، فقد شعرت أن العالم صار أكثر

ضيقاً، وراحت تواري دموعها بصمت ذليل، كآخر شيء يمكن فعله.

مما جعل الكولونيل يمتعض، ويحسّ أن لاستسلامها طعماً مرّاً في حلقه، حيث ذكّرته باستسلامه هو، وبانكساره هو، إلى أن نشبت معركة وهميّة وشرسة بينه وبين زوجها. رماه بكل ما لديه، وبكل الرصاص المخزون في أعماق ذاكرته، ثم راح يعنّف نفسه في دخيلته لاتصاله بالنقيب شاهين لأجله، ذاك الذي قال له وبتعالٍ ماكر: دائماً عندما تحتاجني ستجدني بانتظارك.

((.. شاهين يستطيع أن يحشر أيّ إنسان في أية مؤسسة، بغضّ النظر عن حاجة المؤسسة، أو إرادة إدارتها.. هل أتصل به ثانية لإعادة هذا الحمار إلى قريته؟؟ لا.. لن أتصل بعد بأيّ كان

هذه الاتصالات نفسها ما هي إلا جزء من آليّة المشاكل، لا من آلية الحل..

المشاكل تنبت كالفطر على مزبلة هذه الأيام.. لا يمكن حلّها هكذا.. ثم.. ما الذي يدفعني لتوريط نفسي؟ ألا تكفيني مشاكلي؟!..))

. عمي عماد.. ليس لي غيرك.. وابن الكلب صار بلا شرف.. يريدني أن ..

ماذا أقول لك؟ أنت تفهمني يا عمي..

. إذا كان بهذه النذالة طلّقيه.

. والأولاد؟

. خذي الأولاد وارحلي إلى القرية.

. وكيف نعيش؟. وأين؟

. اشتغلي.

. دبّر لي عمل.. أيّ عمل..

شعر أنها تحاصره، وأنها بدورها محاصرة إلى أقصى حد، وأنها على استعداد لدفع أي ثمن مقابل فك حصارها.

وعيناها المثقلتان باليأس بدتا له كعيني كلبة شريدة، يستطيع أيّ كان التقاطها، وكيفما يشاء، فقط مقابل أن يوفر لها أية فرصة للعيش دون رفس

يومي على مؤخرتها أو لكم وجهها.

((.. كلنا متشابهون إلى حدّ ما وبمعنى ما يا.. ما اسمها؟؟

ما فائدة أن أتذكر اسمها؟ لا أحد يستطيع الآن حماية نفسه بمفرده. حتى القوانين السائدة تتفرّج علينا وعلى مشاكلنا ومعاناتنا، لا بل يعقّدها أحياناً، إلى أن نضيع أو نصبح مجرمين أو.. أو....))

. سأرى ما يمكن فعله.

قال الكولونيل ذلك، وتناول من محفظة يده ورقة من فئة الألف ليرة ودسّها في يد المرأة.

تطلعت المرأة إليه وإلى الورقة بحزن، لكأنها أُهينت دون ذنب.

فسارع يقول، وبشعور أبويّ حارق: خذيها الآن.. مجرّد دين ستسددينه عندما نؤمن لك عملاً.

***

(الفصل الحادي عشر)

جسد الكولونيل كله. وحواسّه كلها، كانت غارقة في صراع وهمّي لا متكافئ مع خصوم لا مرئيين عندما وقع حادث السير.

وبالتالي كان يصعب عليه أن يتبيّن للوهلة الأولى السبب الحقيقي لارتطامه وتكوّمه أمام المقعد الخلفي لسيارته.

وحدها الحركة اليقظة والماهرة للسائق بديع جعلت الموقف أقلّ إيلاماً بل ومضحكاً بعض الشيء، حيث الكولونيل يخفي وجهه بيديه كمن تلقى لكمة مفاجئة، وبديع فاغر الفم، جاحظ العينين، ويداه المرتعشتان تتسمّران على المقود دون حراك.

وكلّ منهما لم يعِ بعد أن اللحظة الفاصلة والحاسمة قد انتهت، وأن الخاصرة اليمنى للبجعة، ومؤخرتها، قد تشوهتا.

. أيّ ابن عاهرة هذا؟! كذلك تساءل الكولونيل وقد استعاد رشده.

. سيارة رسميّة مجنونة يا سيدي.

. رسميّة أو غير رسميّة.. ما معنى هذا؟! عقّب الكولونيل بلهجة أقلّ حدّة من قبل.

فاستدرك بديع، وكأنه يستعيد تفاصيل الحادث لنفسه، غير مصدّق أن ما وقع قد وقع: تجاوزت الإشارة الحمراء برعونة.. وعواؤها العنيد والصاخب

يسابقها.. فعلتْها ومضت.. وكأن شيئاً لم يكن!

كان يمكن أن...)) وهزّ رأسه نافضاً فكرة سوداء.

ـ هل أنتما بخير؟ تساءل أحد شرطة المرور، وهو يحملق فيهما عبر النافذة المكسورة.

التفت كلّ منهما إلى نفسه، ومن ثم إلى الآخر بحثاً عن جواب واقعيّ لسؤال كان غائباً عنهما.

ثم تململا، وترجّلا من الجهة اليسرى.

كانت ثمة كدمة واضحة على جبين الكولونيل، إضافة إلى بعض الرضوض التي راح يتحسسها بامتعاض. في حين بدأ الشرطي باستخفاف ينظم ضبطاً بالحادث، ويومئ برأسه موافقاً على ملاحظات الكولونيل، والتي هي أقرب إلى التأفف.

ثم انتبه الكولونيل إلى اللغط القائم على مقربة منه مع عواء سيارة الإسعاف. ورأى ما رآه الجميع.. جثة أحد المشاة وهي ممدّدة ومهروسة بشكل مرعب، فأغمض عينيه.

. كيف؟! سؤال مرّ خدش حلقه الجاف.

ـ السيارة نفسها. أجاب شرطي المرور، وهو يشير بيده إشارة عامة، لكأن الجميع يعرف أمثال هذه السيارة، ويعرف أن ما يحدث أمرٌ حتميّ ومكتوب على جبين الشارع منذ أن وُجد الشارع!

أخيراً تمّ تدوين ضبط بالحادث، وتم سحب السيارة إلى ورشة الإصلاح، في حين انطلق الكولونيل كمن تخلّص من كابوس، مستقلاً سيارة إجرة.

لم يشأ الذهاب لتناول طعام الغداء في منزل الحاج عدنان كما سبق ووعد. وحيث سبقته زوجته وابنته إلى هناك.

قدّر أن هيئته ووضعه النفسيّ الآن لا يسمحان بذلك. فمضى إلى منزله، واكتفى بالاعتذار عبر الهاتف، مبرراً العدول عن تلبية دعوة الحاج، بأعمال طارئة، ومن ثم أعدّ لنفسه وجبة خفيفة، وحاول الاستسلام للنوم.

تمدّد، وأغمض عينيه، تدغدغه فكرة أنه وحيد، وأنه بحاجة إلى هذه الوحدة، والتي كانت تزعجه فيما سبق، حيث كان يُعدّ شخصاً اجتماعياً مرموقاً،

يطيب لـه الاستغراق فـي الحيـاة الاجتماعيـة والعامـة أيّـاً كـان لونهـا. ودائمـاً يجد الدور المناسب له، والذي يضفي عليه قبولاً اجتماعياً حسناً.

((.. هل انتهت تلك المرحلة؟))

سؤال ممضّ وخزه، فتململ.

آلمه جنبه بعض الشيء، فامتعض، وشتم مهازل السير والتجاوزات، بينما كانت صور الحادث الطريّ تتوارد، وتجثم في رأسه.

((.. آه كم هي مرعبة تلك الجثة، الممدّدة هناك دون أية هويّة واضحة، إلاّ هوية الموت! وأيّ موت؟!))

واقشعر بدنه. ثم تذكر أن الموت موجود باستمرار، في كل زمان ومكان، والكل يعرفه، أو تعرّف عليه بما فيه الكفاية.

واستغرب كيف أن ذلك لم يدُر بخلده من قبل.

((.. قد لا يكون ثمة وقت لننتبه، دائماً ثمة مهام يجب إنجازها.

العجزة وحدهم لديهم المزيد من الوقت ليفكروا طويلاً بالموت أو ما شابهه وحتى أولئك، ورغم أنهم متعبون من الحياة، لا ينفكون يشتكون من أنهم لم يعيشوا بما فيه الكفاية، وأن لديهم في هذه المرحلة بالذات ما يفعلونه ويفكرون به، مما يبرر ولأقصى الحدود استمرار وجودهم!))

وعبرت شفتيه ابتسامة صغيرة، سرعان ما أطفأتها فكرة الموت الشنيع هناك في الشارع، أو على الرصيف، في البحر أو الصحراء، أو في مكان مفقر. ذلك الموت الخاطف والقاسي، الذي يسرق الإنسان فجأة دون أن يدع له مجالاً لتصفية أموره.

ثم استقرّ رأيه على أن أمور الحياة لا يمكن تصفيتها إطلاقاً.

وخطر لـه أن الميت يدهشنا دائماً، لكأن الموت ليس هو نفسه! أو لكأن لكلٍّ موته الخاص!!

حاول أن يطرد بيده فكرة الموت هذه، ولكن عبثاً، فهي لاتزال ماثلة بشكلها القبيح. ذاك الذي يقطع، ودون سابق إنذار. كلّ ارتباط بالحياة، ويلقي الإنسان هكذا. وحيداً وعارياً من أيّ غلاف أو هوية اجتماعية، بل لا يترك لك مجالاً ولو لرؤية الأسف في عيون الآخرين، ولربما تتفسّخ جثتك قبل أن يمكن التعرّف إليها.

ثم لا يدري كيف امتزجت فكرة الموت تلك بهيكل سيارة ما، وشخصيّة ما؟! سيارة قوية وجميلة وقاتلة، وشخصية غامضة، يتدحرجان سوية في الشوارع والأزقة، وحتى في الغرف السريّة المغلقة، ويهرسان كل شيء.

ثم تختلط الصور،السيارات والشخصيات، الأرقام والعلامات الفارقة، ويمتلئ جو الغرفة برائحة الموت. فينقبض وجه الكولونيل وينهض حانقاً. يعدّ فنجان قهوة سادة، يدخّن أكثر من سيجارة، يتشاغل.

ثم يتوقف أمام صورته الشابة المؤطرة بأناقة، يتأملها وهي تستند بكل حيوية إلى صدر الجدار، ويبتسم.

ها شيء من الشعور بالارتياح يبدأ بالتسرب إليه، ممتزجاً برائحة قوية لماضٍ يمثل الآن حيَّاً ودافقاً كما كان.

".. كم هي مدهشة وخادعة هذه المسافة الفاصلة! فبالأمس القريب حتى الالتصاق، طلّقتُ القرية.. آه كم كانت ضيّقة ومضجرة!

منذ لقائنا الأول سحرتني المدينة، ويوماً إثر يوم رحت اكتشف أن فضاءنا الريفيّ ميت، مما جعلني أثور لأتفه الأسباب. وأمتعض من كل جوانب حياتنا هناك. وذاك بدوره جعل الحاج إبراهيم . رحمه الله . يوبخني مراراً، ويلعن الساعة التي أرسلني فيها إلى مدارس المدينة.

وتجذبني عيناه اللتان لم تفهما سبباً لاستيائي. أُدهش لكل ذاك الرضا والسكينة (من أين أتيا؟!) فالتعب والعرق والكفّان المتشققتان، وثياب العمل هي هي لا تفارقه!

والزمن بكل اتساعه تراه يضيق ما بين حلوق الديكة وحركة الشمس والظلال.

يحسّه الحاج بدقّة كبيرة. فيتحرك دائماً كمن سيفوته القطار! إلى أن رقد واستراح. ليرحمك الله يا أبي.

وتلك الأم، التي تحمل كل حنان الأرض وكل صلابتها: تعرك روث الحيوانات برجليها وتبتسم! تحرق أصابعها على تنّور الخبز وتبتسم! تركض طوال النهار في المنزل، وفي الحقل، وتبتسم!

المدينة كلها لا تملك، ولا تستطيع أن تمنح ابتسامة كتلك.

من أين جاءت بكل تلك الابتسامة؟!

آه كم كنت حانقاً عليها وعلى ابتسامتها تلك!

كنت أشكّ أنهم يعيشون. ببساطة يفرحون وببساطة يحزنون:

حساسية كبيرة للفرح وللحزن مزروعة فيهم. لكأن عليهم أن يكونوا كذلك فكانوا، دون أية خيارات أخرى.

وبحثت بعناد عن الخيارات الأخرى، حاملاً معي مشروع عملية تجميليّة لعالم بشع إلى أن... مالي ولهذا؟ عموماً كنّا ما كنّا عليه، بل كنا ما استطعنا أن نكون... قد لا يكفي ذلك، لكننا جميعاً ندرك متأخرين أن مسارات الحياة أكبر منّا ومن عنادنا.."

وأتكأ الكولونيل المتعب مع ذاكرته، مغمضاً عينيه على شريط طويل طويل من الذكريات الخاصة والعامة إلى أن غفا.

****

الفصل الثاني عشر

زاد من بشاعة حادث السير كون عيد الفطر على الأبواب. مما يعني أن الكولونيل لن يستطيع الذهاب كعادته إلى القرية، ولن يزور قبر والده.

. وفاء.. نادى بصوت مرتفع.

فأقبلت وفاء مسرعة، وبعينين مترقبتين، اتسعتا لالتقاط صدى النداء المباغت.

. مارأيك بالسفر إلى القرية"

تحركتْ العينان السوداوان في محجريهما، دون أن تعيا معنى ذلك.

. ألا تستطيعين حمل باقة ورد إلى أبي نيابة عني؟

اتسعت عينا وفاء للحظة ".. زيارة الأموات؟ ... ليكن، " ثم هزت برأسها موافقة.

. أريد أكبر وأجمل باقة ورد لدى الباعة، ثم ألا تحفظين الفاتحة؟

. بلى.

ـ أرجوك أن تقرأي الفاتحة على قبر المرحوم.. وضعي الورد قرب رأسه، وقولي له: هذه هدية أبي. اعذره، أنت تعرف أنه لا يستطيع الحضور هذا العيد.

تملّك وفاء نوع من الخوف المبهم، وهي تهز برأسها موافقة.

لاشك أنها ستفي بوعدها. وستخاطب الأموات كما طلب والدها. وارتعشت. في مناسبة أخرى كان يمكن لها أن تضحك ساخرة، حيث أن مخاطبة الأموات بالنسبة لها لا تثير إلا الضحك. أما الآن فلا... أهو جلال الموت؟ أم جلال ذكرى الجدّ الذي لم يطل به العمر لتراه؟

أم جلال الوفاء الذي جعل من أبيها المهيب شبيه طفل. يرجوها صراحة أن تؤدي نيابة عنه طقسه هذا؟؟ـ وانثري للصبية الفقراء قبضة من النقود الصغيرة على القبر وحوله. أومأت وفاء برأسها ثانية كالمسحورة، وهي تستعيد ذكرى تلك الطقوس التي سبق أن شاهدتها أكثر من مرة. حيث يتقافز الأطفال الفقراء لالتقاط النقود، مع الدعاء للميت بالذهاب إلى الجنة.

ولا يندر أن يدعو بعضهم له بطول العمر! مما يجعل أهل الميت يوارون قهقهاتهم، ويقاومونها بشيء من العذاب والشعور بالإثم.

القرية كلها ستفتقد الكولونيل في العيد. لكأن وجوده أمر ضروري للأحياء والأموات. ففي الأعياد تستيقظ كل حواس القرية.

تلملم ماضيها وحاضرها. تتزيّن حتى بكهولها. وتدفع الأطفال والصبايا إلى واجهة العيد كمرآة لأحلامها المبهمة، والتي يجب أن تكون جميلة جميلة، وقادرة على تعويض خواء الأيام المألوفة والمكرورة.

ومنذ أن أصبح للقرية كولونيلاً من صلبها، وهي دائمة الحرص على دفعه إلى واجهة الواجهة، ليزيّن تطلعاتها ورؤاها بتلك القامة الممشوقة، الملأى بالرتب والنياشين كعلامة فارقة لهذه القرية، التي تكاد الحياة أن تتناساها وترميها إلى الخلف، دون أن تحسب حساباً لقدرتها على إنجاب حتى الكولونيلات، الذين يستطيعون أن يرغموا الحياة على الاستقامة والاعتراف بوجودهم.

".. يا رب..."

ويتسلم الرب مئات الرسائل المستعجلة، من تلك القرية الممتدة كشبح مبهم

قرب تلّ أثري مغفل.

حتى الشباب والصبايا يبعثون برسائلهم الحارة والعاجلة "يا رب.." وتتعالى صلوات العيد بشيء من البهجة والرجاء. مع يقين الأغلبية بأن الرب في العيد هو غيره في الأيام الأخرى! ففي العيد يبدو . تعالى . على مقربة من الجميع، ومستعدّاً للتلبية الفورية بغض النظر عن حجم ذنوب البشر!

وهم إذ يرفعون أصواتهم، لا ليسمعهم جيداً فحسب، بل وليدرك مدى حاجتهم الملّحة إليه بعد كل تلك الخيبات، التي لا يودّون تعدادها الآن، لئلا يعكروا صفو العيد وبركته، وليروا أحلامهم البيضاء الجميلة والخيّرة تتلبّس كل ما يصدر عنهم من قول أو فعل أو حركة. وتتبختر أمامهم بكل جلالها، راسمةً على شفاه الجميع ابتسامة الواثق من تصيّد أحلامه كتصيّد زوجته الغافية في الفراش.

ويبتسمون برضى وتسامح طاغيين. لدرجة أن الأطفال يعجبون من كون الآباء في العيد هم غيرهم في الأيام الأخرى!

فينتهزون الفرصة ليتشيطنوا على هواهم.

العشاق بدورهم ينتظرون العيد بفارغ الصبر. ذلك أن الآباء والأمهات يصرّون على تحديد يوم العيد كتاريخ للخطبة أو الزفاف، أو كليهما معاً، مع همهمات العارف أو الحكيم، الذي يستغرب كيف أن أولئك الحمقى لا يدركون معنى أن يتزوجوا في العيد.

كل القلوب تنفتح على مصاريعها، تتأهّب لكل ما هو خيّر.

ومن ثم ينطلقون ليلتقوا في الساحة العامة. حيث الشيخ زيدان ينتظرهم مع مزماره.

لا أحد يدري كيف ولماذا سُميَّ بالشيخ، مع أنه لم يُشاهد مرة في صلاة جماعيّة.

لعله شيخ في مهنته، حيث أن نغماته ترقّص الإنس والجن، الكل يؤكّد ذلك، والكل يعرف أن ثمة عرساً عاجلاً ينتظر العيد، مثلما ينتظر الشيخ زيدان، مع سيل الصبايا والشباب المكبوحين طوال العام، على أمل أن يُطلقوا كل عفاريتهم، ويزيّنوا هذا العرس الذي طال انتظاره.

".. اللعنة على كل سيارات العالم، وعلى كل حوادث المرور. واللعنة على هذه الرضوض، التي حالت دون ذهابي إلى القرية."

ذلك ما غمغم به الكولونيل. ومن ثم راح يكرر لابنته وصاياه، التي سبق أن سمعتها، ومشى في وداعها حتى الباب الخارجي، لكأنه في طريقه إلى القرية بعيدها وطقوسها. حيث يؤدي الصلاة مع أهلها، وسط تهليل وتكبير يطمسان كل ما سبقهما من وعظ وخطابات.

ويبتسم لنفسه المتمادية رغم شعوره بأنه لم يعد ذلك الفتى المفتون بالمناسبات الخاصة والاستثنائية، وحيث لم تعد لديه تلك الشحنات الكثيفة، حبيسة الأعراف، التي تنتظر الانطلاق بكل عفويتها وصدقها، وأمام حراس الأعراف من الآباء والأمهات، الذين لا يغضون الطرف فحسب، بل ويبتسمون برضى واعتزاز لشيطنات أبنائهم وبناتهم، وهم يسكرون من الفرح والرقص، ولأيام ثلاثة، يعودون بعدها إلى حدود الرشد والعقل الجماعي، الذي لا يتسامح أحد بتجاوزه.

الشباب والشابات، وإثر الكسر المؤقت للقيود، يعرفون بفطرتهم كل طرائق الجنون المشتهاة. وبالتالي يعرفون كيف يستسلمون لنكهة سحر وقداسة مشاعرهم. التي لا يستطيعون البوح بها إلا في العيد. فيخرجون من جلودهم. وأرواحُهم الجائعة للحياة تلوب وتطفو بجلاء على كل معالمهم، وتنخرط أجسادهم في رقص عنيف، تتماهى فيه أحاسيسهم، وتتسرب عبر الأيدي المتماسكة بقوة وحميمية، وعبر الأجساد المتراصة في دائرة الفرح. والتي تتمايل وتهتز بكل طاقاتها، لتلامس أحلامها التي يندر الاعتراف بها. طوال اليوم بدت عينا الكولونيل طافحتين بمراسم وطقوس العيد، وراحتا تتوهجان أمام ذكريات لا تحمل إلا نبض العيد وذاكرة العيد.

".. ارقص يا بن الكلب!" قالها الحاج إبراهيم بهمس ملحاح، وهو يدفع ابنه، وبكثير من الزهو والفرح، إلى حلبة الرقص. دافعاً معه الكثير الكثير من ذكريات رجل ريفي عجوز. فكان ذلك إيذاناً للآخرين بالتجرؤ وسحب عماد من يده، ولو رغماً عنه، إلى حيث يجب أن يكون.

. لكأننا أمام طقس وثني!

قال إمام المسجد ذلك متأففاً، وانصرف غاضباً، خاصة وقد هاله لا مبالاة الكبارالمهينة، أولئك الذين راحوا يبتسمون بتسامح، دون أن يفصحوا عن دهشتهم إزاء سوء فهم هذا الإمام لأرواحهم التي تجدّدها الأعياد والأعراس.

يومئذ لا يدري الكولونيل كيف خرج من جلده، كيف تجاوز تحفظّه ورهبةَ رتبته ونياشينه.

انخرط بادئ ذي بدء بالرقص كملازم أول، بحركات وجلة، أربكتها النظرات المسدّدة تجاهه لترى كيف يرقص الضباط.

ثم أربكته أكثر الحركات اللجوجة لشباب وصبايا انغمسوا جميعاً في طقوس الرقص. التي لا تعترف بأية طقوس سواها، خاصةً تلك التي يمكن أن تعرقل انسيابها وعفويتها وجنونها اللذيذ.

وزاد الطين بلّة أن أمسكتْ ريمه بيده.

يدها ذاتها التي سبق للكولونيل أن احتواها بيديه أيام زمان، وأقسم لها على الحب.

يومئذ كان على استعداد لأن يُقسم، ومن كل قلبه، لأية فتاة، حالما توفّر له فرصة للحب. وكان صادقاً صدق المراهقين في نيّة القسم والوفاء، حيث كانت روحه تختلج بعنف كلما لمح نظرة حالمة في عيني أية فتاة أو امرأة.

وكان جسده الفتيّ يعذّبه، يتمرّد عليه، ويدفعه لارتكاب ولو حماقة ما مع امرأة ما.

وجاءت ريمة. طفلة كبرت على حين غرة. وغدا ثدياها ينفران من صدرها بوقاحة مخجلة.

ضبطته وهو ينظر إليها بشغف، فابتسمت تلك الابتسامة الماكرة التي طفحت مع حمرة شديدة على وجهها. مما أربكه لدرجة أضحكتها.

كانت ضحكتها تلك. والتي عبقت بالشقاوة والشهوة فاضحةً، بقدر ما كانت ملاذاً تحتمي بها من طغيان خجلها العذريّ.

وهربت تاركةً صدى تلك الضحكة تغزو روحه وجسده، وتدفعه لملاحقتها، إلى أن تركته يصطادها سرّاً، برغم انخلاع قلبها الخائف، لتتأوّه بين ساعديه، مع فيض إحساسها الحارق بأنوثتها، ولتحذّره كعادة أغلب الفتيات، من أنها ستشكوه لأبيها ولكل الدنيا. في حين أن يديها الخدرتين لم تدفعا جدّياً وجهه العنيد، الذي أصّر على الاختلاط بوجهها، ومن ثم تقبيلها، مع سيل من الكلمات الهامسة، الراغبة والحنونة والمحبة. لماذا أصرّت ريمة على الإمساك بيده؟

هي نفسها لا تعرف.

اليد الدافئة اللذيذة ذاتها، والتي باتت تحمل خاتم الزواج، تصرّ على احتواء يده، ومن ثم احتواء تلك اللحظة الهاربة من عمرها، لكأنها تقول له: تعال لنستعيدها!

"..كنت يومها صادقاً.

..أعرف.

.. وكنتُ أحبكِ.

.. أعرف.

.. وأنتِ؟

.. أفّ!!

من قبل أحسّ بروحها وهي تتمسح بروحه برغم كل محاولاتها الكاذبة للإفلات من جسده وهو يتلبس جسدها.

والآن يقبض عماد على كامل اللحظة وكامل اليد. ويتحرك بخفة ورشاقة ضاغطاً بشغف على تلك الروح المشاغبة، التي طفرت إلى الأصابع النائمة في يده، وإلى العينين العسليتين، اللتين فاضتا بأحاسيس دقيقة ومبهمة و.. "..ولكنك الآن امرأة وزوجة!

.. ولو.

.. ما معنى ذلك؟

.. لا تفسد الأمر بالثرثرة.

.. أيّ أمر؟!

.. أفّ!!!"

بعد انتهاء الرقص مباشرة عادت ريمة زوجةً لها كل صفات الاتزّان والجدّية و.. وشعر عماد بعرق بارد يتسلل إلى ظهره. وعيناه المذنبتان تستميحان ريمة العذر. فقالت عيناها:

".. عم تعتذر؟!"

ودّت عيناه لو تقولان: "إنها نزوة كافرة.. وأنا مجنون.. يحق لك حتى أن ..."

لكن عينيها اللتين استعادتا صفاءهما الريفي تململتا في محجريهما بحنق

وكان تعبير "أفّ!!" يفور منهما، ويعيدهما كليهما إلى حيث كانا، بعيداً جدّاً عن اللحظة التي اندغمت في الماضي، وإلى غير رجعة.

آه يا ريم.. كنت تحملين روح القرية، شغفها بالحياة، تمردَّها في لحظة الجنون، لحظة انفتاح القلب والعقل على المستحيل، على المطلق.

كنا جميعاً نتقافز وندور هرباً من إحساسنا بالجفاف والخوف والممنوعات. أجسادنا وأرواحنا تنفلت دون رادع. والكبار يرمشون بأعينهم الكليلة، غاضّين الطرف عن أولادهم المسحورين، مع إدراكهم بأن كل شيء سيعود إلى نصابه. وأن إراداتهم التي ورثوها عن إرادات آبائهم ستلغي كل الاحتمالات المشاكسة فور انطفاء السحر، مع انطفاء أنغام المزمار. الذي استمرأ اللعب بأحاسيس أبناء الأرض، منذ أن وُجدت الأرض. لكأن الفرح مجرد مزحة طريفة، ما وُجد إلا كتلوين عابر ومبهج في حياة ثابتة، استقرتْ على اللون المنضبط ذاته والمحفور في ذاكرة الكبار وجلودهم!

كيف اختلطت ليلى بريم؟!

عماد نفسه لا يعرف. ثديا ريم بالذات نفرا من صدر ليلى!

وذات العينين الواسعتين، اللتين لا تعرفان كيف تتصرّفان بعبق الروح المتحفزّة للطيران و..

. أين كنت؟

. آ؟؟ أتذكّرُ ليلةَ عرسنا. بذلك أجاب وبعفويّة تفوح منها رائحة صدق شفاف ومُلتبس، فاجأه هو قبل سواه. دون أن يدري لمن قالها. ألزوجته؟ أم لامرأة ما تزوّجها في زوجته؟ أم...؟

فابتسمت ليلى دون أن تقول له: "ليتني أستطيع تصديقك."

***

الفصل الثالث عشر

منذ حين وورقة الاستدعاء تتكئ على الطاولة كمرابية عجوز، تعرف أن الجميع مرغم على الاهتمام بها لدرجة الضنى.

ـ ما الذي يحدث بالضبط؟! تساءلت الزوجة، وهي تنظر بارتياب إلى الورقة، ومن ثم إلى زوجها.

ـ لا شيء يدعو للقلق. بذلك أجاب الكولونيل، ونهض ليتناول الورقة، ويخرج.

كان بديع يتململ خلف المقود بانتظاره. وما أن صفق الكولونيل الباب الخلفي، حتى انطلقت السيارة، دون أن يتساءل بديع: "إلى أين يا سيدي؟" كأنهما على موعد مع الطريق المليئة بالريبة والحذر، والتي باتت مألوفة لديهما، وباتا مألوفين لديها، إلى أن بلغا الحاجز المعروف، حيث سُمح لهما بتجاوزه ليتوقفا قريباً من مدخل البناء الغامض ذاته المنطوي على نفسه وتفرّده.

فترَّجل الكولونيل ليجد رجلاً حليق الرأس ينتظره، ومضى معه عبر الأروقة ذاتها، والتي تبيّن فيها الكولونيل تشعبّات جديدة لم يسبق أن اكتشفها. وكانت الأصوات المبهمة كعادتها تنسحق وتنزّ من الجدران ذاتها وتراءى للكولونيل أن ثمة هياكل بشرية مصلوبة هنا وهناك، وبشكل مقلوب. وإنّ جثة أحدهم المتورمة

تختلج وتصدر أنّات مشروخة..

. اسكت يا بن القحبة. قال أحدهم ذلك، وهو يلكم الهيكل بقبضة متمرّسة، فشهقت العينان، وسقط الرأس متدلياً، وسكت "ابن القحبة".

. هل ترى ما أراه؟ تساءل الكولونيل.

. فأجاب حليق الرأس: لا أرى شيئاً يا سيدي.

وشعر الكولونيل بالغثيان.

. قُدني إلى أقرب مرحاض.

. دونك.. إلى اليمين يا سيدي.

في الداخل كاد الكولونيل أن يتقيأ أمعاءه، وراح يتلوّى من ألم غامض وعام. لكن مخاوفه من أن يتركه حليق الرأس وحيداً، أو أن يغلق عليه وإلى الأبد باب المرحاض، دفعه لأن يلملم نفسه، ويندفع كخارج من قبر، ليسير بضع خطوات مرتبكة في غبش الممر الملتوي، والمغلق بستارة حديدية كتيمة.

. من هنا يا سيدي.

. أنا لا أراك يا هذا.

دارى حليق الرأس ابتسامته وقال: هات يدك يا سيدي.

. لماذا الإضاءة سيئة؟ تساءل الكولونيل باستياء.

. الإضاءة كافية يا سيدي.

. لعلك تقودني في الطريق الخطأ.. أين شاهين؟

. السيد شاهين ينتظرك يا سيدي.

. لم تقل لي ما اسمك.

. نسيت أمي أن تعطيني اسماً يا سيدي. قال ذلك وضحك.

فأحسّ الولونيل بأن لحليق الرأس ضحكة كالوحل، وبأن لـه أكثر من يدين، وأكثر من رأس. وأن لـه مجسّات وأطرافاً إضافية تمكنه من التقاط فريسته عن بعد. فتلكأ بعض الشيء في سيره، إلا أنه عجّل ثانية خشية ألا يصل أبداً. إلى أن بهرت الإضاءة عينيه، ووجد نفسه أمام المكتب الفخم ذاته فتقدم بوجل، وتوقف مستطلعاً.

لم يكن ثمة أحد.

. تستطيع الانتظار يا سيدي بعض الوقت.

قال حليق الرأس ذلك، وضغط على أحد الأزرار، فأطلّ رأس صغير بعينين باردتين قائلاً: أمر سيدي؟

ـ احرص على راحة الكولونيل. بذلك أجاب حليق الرأس، وغاب: تاركاً الكولونيل يضغط بأصابعه على صدغيه، ويمسح حبات العرق الباردة عن وجهه.

أكثر من مرة قدّم صغير الرأس القهوة للكولونيل، ومن ثم تشاغل بتقليب صفحات مجلة فنيّة مصورّة.

. ما اسمك يا هذا؟

تلفّت صغير الرأس حوله بحذر، وأجاب: لا اسم لي يا سيدي.

وساد المكان صمت دبق، اشتدّ خلاله الصّداع، وراح يخز صدغّي الكولونيل بقسوة، وينتشر. ومن ثم راحت تنتشر معه نتف من الذكريات المختلطة، ومن صور أجساد مهترئة، بدأت تتراءى وتتراقص أمام عينيه، إلى أن رأى بوضوح توافد ديدان بيضاء صغيرة، لتلغ بصديد دم متجمد على وجوه يابسة بلا هوية، بل راح يرى الكثير من أصدقائه الأحياء منهم والأموات، وهم يعبرون به، ويسقطون في فراغ مظلم وعميق.

مخلفين أصواتاً أشبه بالعواء، بقيت تلوب بين الجدران الصّماء، وتضغط على أعصاب الكولونيل.

بل إن استطالات ذلك العواء بدأت تلتفّ على عنقه، وتجفف حلقه، حتى الجدران بدأت تعوي.. الأبواب الموصدة.. الأموات.. الأحياء الذين لم يعد يعرف عنهم شيئاً.. ألـ.. ألـ.. ..

إلى أن عوت سيارة الإسعاف.

***

الفصل الرابع عشر

عندما رنّ جرس الباب الخارجي، تساءلت أمّ وفاء عمّن يكون. حيث أن كلاً من أفراد الأسرة يملك مفتاحاً، مثلما يملك مفاتيح حياته الخاصة.

ومضت تفتح الباب لتفاجأ برؤية الكولونيل مستنداً على بديع، لكأنه منبوش من قبر. فتساءلت بدهشة وقلق:

. ما الأمر؟! فأجاب الكولونيل بصوت متعب:

. لا شيء.

وما أن ساعدته على الولوج إلى المنزل. حتى انسحب بديع نافضاً يديه من مهمة بدت مرهقة له.

. ما بك؟

. لا شيء.. مجرد وعكة صحية عابرة.

. وعكة.. وعكة.. قل لي ما بك.

. هذا تقرير الطبيب. وناولها التقرير من جيب سترته.

تفحصّت أم وفاء التقرير، ثم قذفت به إلى الأرض قائلة:

. لا أثق حتى بأطبائهم، لنذهب إلى طبيبنا الخاص.

. لا داعي لذلك.. أريد أن أنام.

وأسلم نفسه لها، لتساعده في خلع ثيابه وارتداء منامته، ولتجلس قربه تتأمل

وجهه المرهق والمستسلم إلى أن غفا، وهي لا تكاد تصدق أن هذا هو كولونيلها، مع ذلك شعرت أن حاجته إليها تعيد لها شيئاً من حضورها المهمل، وشيئاً من إحساسها بالمسؤولية، كزوجة لا تعرف كيف تثبت هذا الحضور.

".. كل الحق عليك يا عماد."

غمغمت بذلك لنفسها، ثم عدلت إلى أن "... الظلم حرام." وأنها هي نفسها لا تعرف كيف أصبحت الأمور على ما هي عليه.

".. الدنيا ترتّب نفسها بنفسها.. لا أدري كيف."

واستسلمت لنوع من الشعور بالخيبة، الذي كان ولا يزال يتسلل إليها، والذي يجعلها تلوم نفسها حيناً، وتلوم الآخرين أحياناً، إلى أن تحتمي بشيء من القدريّة، الذي يعيد إليها الشعور بالتوازن والاستقرار. تاركة الذاكرة المهملة تستيقظ أحياناً لتلهو وتلعب مع صور باهتة لكل الأيام الخوالي، حيث كانت ليلى تخاف من تحديد مستقبلها، الذي لم يكن أقل تشوّشاً من أفكارها وتصوراتها عنه. ".. . الحمد لله.. سترة وكمال.

ذلك ما قاله والدها معقبّاً على تخرّجها من الثانوية العامة. خاتماً بذلك سيرتها الدراسيّة.

لم يكن آنذاك لدى ليلى اعتراض جدّي على الارتهان للمنزل. فخارجه ثمة حياة تبدو لها معقدّة. بل وشائكة أحياناً.

للوهلة الأولى تلمستْها بفضول. حملت تعليمات أمّها الصارمة، ونظرات أبيها الحذرة. وجسدها الذي بدأ يتفتّح باكراً تحت ثياب محتشمة ولائقة، وذهبت إلى الثانوية.

لم تستطع يومئذٍ أن تستوعب كل تلك التناقضات التي تمور من حولها، ولا أن تنخرط فيها. وما أن تمسّها حتى تجفل، وتبتعد، محتميةً بجدار كبير من الخوف والقلق والحيرة.

الثانوية نفسها لم تكن آمنة، وخزتها حتى في شخصها.

".. جاءت الراهبة." تقول إحدى الطالبات، وتكركر مع زميلاتها بضحك مؤذٍ أوجع ليلى، لدرجة اشتهاء البكاء.

لم تدر ما يجب فعله لئلا تبدو كراهبة.

طويلاً وقفت أمام المرآة تفتش نفسها. ترى ما لم يره الآخرون. بل تبدو خجلة من كل هذا الوضوح، المؤطر بأحاسيس فاضحة ومعيبة، فتدير ظهرها للمرآة،

وتتلفّت حولها خشية أن يكون للمرآة عيون أخرى.

هل رأى ابن جارها "جودت" ما رأته هي؟

أم أن جرأته البالغة إلى حدّ الوقاحة هي التي دفعته لحصارها؟

لم تستطع ليلى التحديد.

وبالرغم من أنها كانت تحفظ عن ظهر قلب كل تحرشاته الجريئة، وتنتظر باستمرار أن يرفد ذاكرتها بالمزيد، إلا أنها كانت تخبئ ردود فعلها كاملة لفراشها الذي يتحوّل إلى عالم آخر. يضجّ بحركة وحياة أكثر يسراً ومتعة.

من يصدّق أنها بكت عندما تزوّج ذاك الـ "جودت"؟!

أحسّت أنه خانها. وأنها مغدورة بلا رحمة، وبأن عليها أن تدفن عالمها السرّي إلى الأبد، ودون مؤاساة.

". استعدي لمواجهة ناس أوادم."

لم تفهم جيداً في البدء ما قالته أمُّها. لكن التفاصيل لم تأت واضحة فحسب، بل ومربكة أيضاً.

".. ارتدي هذا الفستان. إنه أجمل.. صفّفي شعرك جيداً.. قدّمي القهوة مع ابتسامة محتشمة.."

كل هذا وذاك جعلها تشعر بالحرج، لدرجة الإحساس بأن أمها تتواطأ مع الآخرين لدفعها إلى فعل شنيع ومفضوح!!

".. . مالك؟! لم تعودي صغيرة!..."

هي تعرف أكثر من أمها أنها لم تعد صغيرة. أمّا أن تقدّمها أمُّها بطريقة معيّنة وبلحظة معيّنة، ولإنسان معيّن، فهذا ما لم تستطع استيعابه. خاصة وأن هذه الأم بالذات هي من حشت رأسها ولسنوات طوال، بأقاويل وحكايات تجعل من الرجل لعنةً على أقل تقدير!

مع ذلك تصرّفتْ تماماً كما أرادت أمّها

كان اختباراً أقسى مما قدّرتْ. بل كان ورطةً أفقدتها كل تصميمها على النجاح.

حتى نظراتُ أمّها التي راحت تستحثّ شجاعتها، بدتْ تستفزّ شعورها بأن الجميع اتفقوا فجأة على تعريتها تمهيداً لهتكها! فاضطربت بشكل مخزٍ، مما خلّف انطباعاً بأنها مريضة أكثر من كونها محتشمة.

".. إذا بقيت تتصرّفين هكذا كالحمير.. لن تجدي عريساً أبداً."

ذلك ما قالته أمّها بنزق، بعد أن ذهب "الأوادم" مرة إثر أخرى دون رجعة.

كانت ثمة ثورة قد بدأت تعتمل في داخلها ضد "الأوادم" وضدّ أمها.

لكنها وكالعادة، دفنتها في أعماقها، لتضيف إحساساً جديداً بالعجز والغبن والخيبة. "..فنجان القهوة وحده يقرّر النتيجة!"

بغيظٍ قالت ليلى ذلك لنفسها، وهي تعدّ القهوة للوافد الجديد، وشتمت الخادمة لغيابها السخيف.

ثم غمغمت بما يشبه البكاء، وهي ترى القهوة تنسفح على النار، وتلّوث فستانها:

"أية لعبة مقيتة ومغشوشة هذه؟ أف!!.

وقررت رفض اللعب.

لكن الحاج عدنان، والمعروف بسوء طويته تجاه الرجال، هو ذاته أصرّ عليها لتحضر كشيء إجرائي وضروري للسهرة على ما يبدو! إذ قال:

".. عماد واحد من البيت يا ليلى." وابتسامته العريضة تجرّها من عينيها، ليقدّمها للضابط الشاب على أنها ابنته المدلّلة.

لم تستطع ليلى الصمود طويلاً أمام النظرات الجريئة، وهي تخترقها، وتبلبل حركاتها ومشاعرها. فاقتنصت أول فرصة، وهربتْ تتلمّس آثار عينيه على روحها وجسدها، وتغصّ بشعور شبه يقيني، بأنها خسرت اليوم كما في أيام سابقة حتى فرصة تأكيد ذاتها.

إلا أن عماد، الذي لم يأت مع حاشية، كما هي العادة مع الناس "الأوادم" عاد ثانية وثالثة و.. خلافاً لمن سبقه، تاركاً لها، لا فرصاً جديدة للتجريب وحسب، بل وفرصة للحلم أيضاً.

شيء واحد كان يُنغّصها. إنها رائحة التواطؤ المكشوف، وهي تنثّ من العينين العجوزتين للحاج، مما كان يستفزّها ويحرّضها على رفض دعواته.

وفي كل مرة كانت ترجئ رفضها، إلا أن وجدت نفسها أخيراً، تستبق الأمر، وتتعلّق بعينيّ الحاج، لكأنها تقول له، وكلما حضر عماد: "خذني معك".

وتضغط أصابع ليلى بلذّة على الوجه الغافي، فيغمغم عماد بكلمات مبهمة ومُتعبة، فتجفل أم وفاء، وتنسحب مع ذاكرتها خشية أن يستيقظ الكولونيل.

***

الفصل الخامس عشر

لئن ألقى مرض الكولونيل ظلّاً ثقيلاً على وفاء، التي بدت أكثر ضيقاً ونزقاً، فقد ترك أمّها في موجة من القلق اللذيذ، منذ أن شعرت بالكولونيل يحتاج لأن يتكئ عليها، ولأن يسلم نفسه لها كطفل، لتبدّل ثيابه، ولتهدهده، محيطةً إياه بمشاعر طيبة. كانت تبدو في أكثر من مناسبة، مجرّد زوائد لا لزوم لها. مما جعلها أكثر حياة وحيوّية، لدرجة أنها لم تعد تعرف ما يجب فعله بالتحديد.

مراراً استدعت الطبيب، جسّت نبض زوجها، تحسست حرارته، مسحتْ حبات العرق عن جبينه وعنقه، فتحت النافذة من أجل تهوية جيدة، ثم أغلقتها خشية أن يُصاب بنزلة برد. ثم استقر رأيها على فتحها لاعتدال الجو وضرورة المزيد من الأوكسجين.

طلبت من وفاء ألا ترفع صوت المذياع، ورجتها ألا تشغل التلفزيون، مما جعل وفاء، وبرغم كل ضيقها تبتسم ابتسامة خبيثة أشعلت وجه الأم بحمرة ألهبت أذنيها. فانسحبت تتعثر بدفق من أحاسيس حادة ومربكة، وتغص بشيء من الشعور بالحنق على نفسها وعلى الكولونيل، وتتعمّد أن تجلس على مبعدة من زوجها، وعلى مقربة من ماض، يبدو وكأنه لا يخصّها. في حين بدأ شكّ بارد يتسلل إلى ذاكرتها، ويشوش ذهنها.

لم تعد واثقة من أنها أحبت الكولونيل. أو أحبّها.

بل لم تعد واثقة من أنها عرفت الحب أصلاً.

وتلوح نتف من وجوه عتيقة عارية من شخوصها. ثم يلوح وجه "جودت" الجريء. وتتذكر أن ليس ثمة علاقة البتة، شأنه شأن الآخرين. شاركته بصمتها وأحلامها، التي كانت تفتش عن شخص ما، أيّ شخص.

" كان مشاكساً جيداً فحسب".

مع ذلك لا تدري كيف ارتدى آنذاك كل شوقها للحب، لتجد نفسها بعد حين مخدوعة بلا رحمة، ودون أن تتمكن حتى من البوح بذلك. مما جعلها تؤكد لنفسها وسط خيبتها ودموعها التي لم يدر بها أحد، أن الحب نفسه شيء غير واقعي، مجرد وهم جميل بقدر ما هو كاذب.

ويخزها مرأى زوجها الراقد أمامها، تختلط عليها الأمور، الأحلام.. الوقائع.. الذكريات.

لا تستطيع أن تفصل على وجه اليقين بين هذه وتلك، ثم تعود لتلوم نفسها كامرأة لا تعرف كيف تتصرّف حتى بمشاعرها.

ومن ثم تجزم لنفسها بأن عماد بالذات، هو وحده الذي عرف كيف يفتنها ويصوغ لها أحلامها.

وتتذكر بإصرار كيف أنها لم تستأ يوم اكتشفت أنه لم يدخل بيتهم عاشقاً ولا خاطباً، مؤكدّة لنفسها أن ذلك بالذات جعلها تبدو أكثر حريّة وقدرة على الحلم والحب، وكما تريد هي. مما دفعها آنذاك وبمحض إرادتها لتقبع قرب والدها، متجاوزة دمدمات أمّها الحانقة، لا لتشارك في السهرة حيث يكون عماد فحسب، بل ولتقف صراحة إلى جانبه إذا ما اختلف في الرأي مع والدها، تلك الخلافات التي لم تكن واضحة أو مفهومة تماماً بالنسبة إليها، كأن يتحدّث عماد عن السيادة وضبط الاستيراد والتصنيع "كهموم وطنية" كما يقول، فيحدّثه الحاج عن مميزات القطاع الخاص وضرورة الانفتاح الاقتصادي.

وإذ يحتدّ الخلاف، تتدخل ليلى لتجزم بقولها: إذا لم يصحّ الانفتاح والتصنيع معاً، فالتصنيع أفضل."

وبرغم أن كليهما يضحكان لقولها، فهي لم تشعر أن أيّاً منهما يتعمدّ إهانتها، بل ينظران إليّها وإلى أقوالها كصّمام أمان ضروري ومحبب. مما يشجعها على المزيد من التدّخل، بل وعلى المزيد من الانحياز. لدرجة أنها لم تعد تخفي حنقها على أبيها إن بالغ في إثارة حنق عماد. كما فعل يوم راح

عماد يحدّثهم بزهو عن زيارته لكوبا مع وفد عسكري رفيع المستوى، وعن مقابلة كاسترو لهم.

كان عماد مفتوناً بكاسترو ".. إنه عملاق.. على العالم الثالث أن يفخر بكاسترو.." تُغفل ليلى الاستياء الواضح على وجه والدها. وتتابع بلذّة عينيّ عماد اللامعتين خلال وصفه لـ ".. روح كاسترو الكفاحية، وأثرها الإيجابي على معنويات الشعوب الصغيرة.."

وتومئ له بعينيها ورأسها أن: نعم.. نعم..

في حين كان والدها يتحيّن الفرصة ليقول شيئاً ما. وكان عماد متوجهاً بكلّيته إلى ليلى، التي أحست بعينيه العسليتين تغرقانها بنظرة شاملة وطويلة ولذيذة. يريد أن يشملها باهتمامه.

".. تصوّري كيف وقف أمامنا كإله إغريقي، مشيراً بعصاه إلى الشمال الأمريكي، على خارطة واسعة، ليقول بحزن وغضب: من همومهم غزو الفضاء، ومن همومنا نحن في العالم التابع أن نثبت أقدامنا على أراضي أوطاننا، ونتمنى أن يرسلوا لنا التكنولوجيا والخبز بدل الرصاص والجواسيس.."

"ـ إذا مرّ كاسترو فأعطه الكثير من الخبز يا أم تيسير." قال الحاج بصوت عال للخادمة التي دخلت لتوّها، حاملة طبق الفاكهة.

" . كاسترو من يا سيدي؟"

" . واحد شيوعي يا أم تيسير." أجاب الحاج وهو يقهقه قهقهة صاخبة، احتقن معها وجه عماد، وبدا كأنه يهم بصفع والدها.

فصرخت ليلى كالمدوغة: "ـ اخرسي واخرجي يا أم تيسير." لكأنها تصرخ بوجه والدها، الذي عرف كيف يخبئ امتعاضه.

وعادت لترشق عماد بنظرة رجاء وبابتسامة حب، وهي تقول: " . لقد جعلتني أحبّ هذا الـ كاسترو يا عماد" وعيناها تتلمّسان وجهه، وتبذلان من نفسها كل ما يمكن أن يعيد لهذا الوجه صفاءه وهدوءه.

" آه يا خبيثة كم بدوت رائعة آنذاك!" قال لها عماد وهو يعترف بأنها نجحت يومئذٍ في امتصاص ثورته إلى حد كبير، كما دفعته لا لأن يرجع عن نيّته بعدم العودة فحسب، بل ولأن يصرَّ على العودة، ومن أجلها فقط هذه المرة.

ضحكتْ بسعادة طفل لاعترافه هذا، عضّت شفتيه، وهي تغمم:

اسكت.. اسكت.. لقد سحرتني يومذاك."

فافترشها دون أن يترك لها مجالاً للدفاع الكاذب عن ذاتها الراغبة.

".. لو متُّ يومئذ لما كنتُ آسفة البتة." ذلك ما فكرت به أم وفاء بحب، وهي تنظر بعتاب إلى الوجه الغافي للكولونيل، وتتذكر كيف أن شهر عسلهما لم يَطُل.

ثم تعتقد بغيظ أن لوالدها ضلعاً في الأمر، وأنها ضحية علاقة ملتبسة لا تستطيع فهمها.

".. ما الذي شدّ أحدهما للآخر برغم كل ذلك التناقض؟!"

".. ولماذا كان عماد يصرّ على تهميز القاف أمام والدي؟!"

".. أبي لم يشتم عماد ولو مرة واحدة، لكنه كثيراً ما شتم "ذوي الرؤوس الحامية".. وعماد لم يشتم والدي، ولكنه وباستمرار يشتم " أمثال والدي. إلى أن قال ذات مرة وهو يرى صورة والدي على شاشات التلفزيون ضمن وفد كبير يستقبل نيكسون:

سيدمرون كل شيء. فسألته بسذاجة: كيف؟ وأنا أتابع صورة والدي بقلق لكأنني بصدد إخفائها عن عيني عماد.

فأجاب: بالانفتاح.. بالإنغلاق.. بمحاولة رهن الوطن للاحتكارات.

فتساءلتُ وأنا أتذكر حواراته القديمة والساخنة مع والدي:

وماذا عن السيادة والتصنيع؟. وكلّي استعداد للانحياز ثانية إلى صفّه وتهدئته.

". سنرى." قالها من بين أسنانه، وخرج متحفزّاً و مستنفراً حتى العظم.

"كانت وفاء الطفلة، تلثغ بكلمات مبهمة ولذيذة، غير عابئة بكل ما يجري، ففعلتُ مثلها، رحت ألثغ على طريقتها، فتضحك، وأضحك، في غفلة عن الانفتاح، الذي بدأ يتسلل حتى إلى حياتنا الخاصة" والذي لم يترك للكولونيل سوى أن يلملم تاريخه، ويضعه على الرّف، مع بعض الخردوات المهملة، وبعض النياشين التي اكتسبها في زمن السلم الرديء.

***

الفصل السادس عشر

وفاء اعترفت لنفسها بصوتٍ عالٍ " أن حياتها لا تحتمل التحديد." وقررتْ فرملةَ علاقتها بنادر. خاصّة وأن إحساساً غامضاً كان قد بدأ يكبر في أعماقها، موحياً بأن من السهل الإعجاب بمثل نادر، في حين أن من الصعب الارتباط به. مع ذلك بقيت مجمل علاقتهما تطفو في الذاكرة، تلفح العينين والقلب، فتشعر بالأسى

".. لماذا لا يكون مثل الآخرين؟! وأية حكمة مبكرة هذه التي يريد أن يكبّلني بها؟!.."

".. دعني من مثالياتك بالله عليك.. أنا لا أريد العيش بين ملائكته.. هؤلاء بشر وهذا يكفيني."

ويتخاصمان. تضع يديها على خصرها وتقول بحنق: حرّيتي أثمن منك ومن كل العالم.

ويذهب حديثهما عن الحرية والمساواة أدراج اتساع زاوية الخلاف.

نادر بدوره أحسّ أن لا مستقبل لعلاقتهما. بات يشعر أنه يدافع عن الماضي فحسب، عن تاريخ العلاقة، عن وفاء التي صاغها في ذهنه، والتي

بدأت تهرب إلى عالمها الخاص، وأنّ وفاء اليوم ليست أكثر من رغبات وأهواء وأمزجة مجنونة منفلتة، مغرقة بذاتيتها. وثمة بذاءات وتهتك، وتوق شبقيّ مجنون مستهتر.

".. لا تريد فهم أن الحياة أكثر من ذلك!"

ويكرّر محاولاته. يحاصرها بفلسفته عن الحياة، وتحاصره بجسدها.

".. أي جسد مجنون لها؟! يغريك بالموت شهوة! ثم ماذا؟؟

الغواية في دمها، إنها علامتها الفارقة، والغيرة تنهشني.. عليّ أن أضع حدّاً لكل ذلك."

".. من فضلك، أنا لا أطيق الوصاية.. أكره أبي لمجرد كونه سلطة.. هل تفهم؟!"

في البداية كان يكفي أن تبتسم ليغفر لها. ".. لا أستطيع إلا أن أغفر لها. وجسدها الذي يرشح شهوة يضمّني ويقول: اسكت.. فأسكت.. إثر كل خصام كنت أبتعد، أهجرها، أقسم أنني لن أعود، ثم أحنث بقسمي، وأعود.. تندفع إليّ كطفل آثم.. تدفن رأسها في صدري، فأدفن كل تحفظاتي..

أما الآن: "أف..."

كانت علاقتهما تسير إلى التأزم بثبات

"..أنت تريد تغيير العالم.. لا أدري كيف ولماذا.. أنا لا يهمّني عالمك..

هذا العالم يتّسع لي، وهو جميل بما فيه الكفاية."

".. العالم ليس بين أفخاذنا."

".. أنتَ قذر!"

".. وأنتِ سخيفة."

".. لا تستطيع أن تكون إنساناً حضاريًّاً.. أنت فلاح ابن فلاح."

فصفعها، كان يبصقها وهو يصرخ بكبرياء مجروح: وأنتِ برجوازية تافهة.

.. خلال ذلك. كانت قد اتخذت قرارها. ومن ثم وافقت على عرض "سومر" بالزواج.

إثر خطوبتها. أحسّت أن ارتباطها بـ سومر مجرد مزحة طريفة، مزحةٌ أفرزتها الحفلات الصاخبة. مع ذلك راحت الطقوس الاجتماعية تضفي عليها الكثير من الجدّية.

وحين أرسلت بطاقات الدعوة للصديقات والأصدقاء والأقارب، لم تنسَ أن ترسل بطاقة إلى نادر، برغم إدراكها أنه لن يستجيب لدعوتها، إذ ربما سيشعر بشعور الزوج المدعو لحفلة خيانة زوجته!

مع ذلك غاظها تغيبّه، وراحت تشتم جدّيته وعناده.

فيما بعد شعرت أن غيابه الكلّي من حياتها، شيء سخيف وثقيل وغير مبرر

بل رأت دون تردد كبير أن تمضي إليه، لتشدّه من أذنه كعادتها إثر كل خصام. كان وحيداً أكثر من أيّ وقتٍ مضى.. وكان مصرّاً على تجاهل وجودها.

لم يدْعُها حتى للجلوس

وهيمن صمتٌ مربك.

وجهه جديد، متحفّظ وغريب، بركانّي الملمس، قلق القسمات، غائم، و.. ولأول مرة، يخونها صوتها. تتلعثم وهي تقول: لنكن أصدقاء على الأقل.

.. وحدها كانت تتحدّث في بوادي الروح الخالية، ووحده كان يهدم العالم حجراً حجراً، دون أية فكرة مسبقة عن إعادة بنائه، ورائحةٌ حرّيفة لموت مهين، تسبح بين روحها وعينيه نصف المغمضتين.

لا تدري يومها كيف انفصل جسدها عنها، كيف راح يبتعد كشيء لا يخصّها ونظرات نادر الأخيرة والمضطربة تثقبها من الخلف. فاختلجت. وغصّت بمشاعرَ حادّة ومتناقضة طردت الدم من شفتيها ووجهها. فارتعشت.

أحسّت أنها تسقط في فراغ دبق هلاميّ، وطنينٌ أسود ينزّ من رأسها الثقيل. كاد أن يصرخ: انتظري.

بل لعله سمع صوته المتحشرج، وهو يسقط متكسّراً في حلقه الجاف.

".. تستدير كطفلة مُربكة.. تتعثّر كلماتُها.. ووجهها المحتقن المذنب يرتفع قبالة وجهه.. تنفرج الشفتان الحلوتان عن نداء سرّي إلى روحه الوديعة المسالمة.. وتبرق العينان العسليتان بوميض يعرفه جيداً.. يغسله.. يطهره.. يصوغه من جديد.. يستسلم للشرارات وهي تخفق راعشة في أقصى أقاصي القلب.. تدفن رأسها كطير مبلول في صدره.. تشهق.. ينفتح القلب على مصراعيه.. تلجُه.. تتسرّب أنوثتها الطاغية إلى نبضه..

وشفتاه الراعشتان تشربانها قطرة قطرة..."

ويخزه جفاف موجع في حلقه.

من زمن موغل في البعد رحلت وفاء! لتبرز غرفته بكل عريها كندبة في سماء فارغة.

. الأموات لا يعودون إلاّ بحسناتهم.

تمتم بذلك، مهدّئاً روحه المتوترة، ومسح عن عينيه صورة وفاء التي تيقّن من موتها يوم خطوبتها.

في مساء ذلك اليوم الثقيل، بقي ينتظرها حتى الفجر. ".. رآها وهي تهرب خلسة، تركض في الشوارع والأزقة، غير عابئة بنظرات الفضوليين، تبتسم لنفسها حيث ستراه يشهق مصعوقاً من المفاجأة.. لكنها تشهق وهي تجده قد أعدّ القهوة السادة لكليهما، وجلس ينتظرها بثقة..

تطير إليه.. تخلع عنها كل ما له علاقة بالخطوبة، وتركن في حضنه

كقطة أليفة، وعيناها المشاغبتان تخبئان فرحهما الطاغي، وتلمعان قبالة عينيه، مليئتان بالرضى والرغبة.. وعلى الفور يقرران زواجاً حاسماً وسريعاً.."

.. إثر ليل طويل طويل، وعند حدود الصباح، رشف نادر ما تبقى من القهوة السادة الباردة.. أحرق آخر سيجارة.. دفن وفاء.. وتمدّد في محاولة يائسة للنوم.

.. بقيت وفاء تصرّ بعناد على تمديد فترة خطوبتها، تخاتل أحاسيسها المبهمة، وتبوح لنفسها من حين لآخر أن الزواج الواضح المحدّد يقلقها..

ونادر، الغائب الحاضر، يحاصرها باستمرار، مسبباً لها الكثير من الارباكات.

".. تتلقّفه، تصوغه على هواها، ينفلت منها بعناد، يقف بعيداً، ويومئ: أن تعالي. ترجوه أن يأتي، أن يقترب، تشكو له صداعها المفاجئ، أرقها، فيدير لها ظهره ويمضي.. ينبثق ثانية من حيث لا تدري، يجلس قربها بوجه أسيان، تغسله بابتسامتها، تمد يدها كمراهقة، لتتلمّس يده.. لكنه ينطفئ ليبرز خاتم الخطبة فجّاً، كبيراً، وثقيلاً..."

بسرعة ونزق خلعته، وارتبكت ذاكرتها.. "لم يدعُها حتى للجلوس! لم يستطع إلا إهانتها.

يومها سقطت اللغة الحميمة في مستنقع بارد، لأول مرة تذوقت طعم البكاء المر.. دفنت رأسها في الوسادة، ونشجت كالأطفال.

مع ذلك أصرّت على ركوب رأسها.

".. لا يمكنني الاستغناء عن ذلك المجنون!"

ومضت تلسعها ألف رغبة ورغبة.

سأقول له: إنني أحبك.. ألا تفهم؟! تعال لنتزوج.. الآن.. ودون أية طقوس أو مراسيم.. وهنا.. على سريرك العتيق نفسه."

وقررتْ ألا تترك الثرثرة تفسد الأمر.

ارتدتْ وعلى عجل بلوزتها الزهرية التي يحبها، والبنطال المخملي الذي أهداها إياه في عيد ميلادها، وأرسلت شعرها كما اشتهى دائماً، وانطلقت كمراهقة تشدها رائحة مغامرتها الأولى.

لكن نادر كان قد حمل غموضه وقلقه، واختفى، تاركاً الخواء، ورائحة شجارهما، وذلك السرير الرخيص، كقبرٍ طريّ لذكريات بعيدة وجميلة.

وكانت ثمة أشباح، وقشعريرة باردة، تكمن في الغرفة ذاتها.

* * *

الفصل السابع عشر

لم يصدّق الحاج عدنان أذنيه. مع ذلك طار بسيارته كالملدوغ.
. أهلاً بك يا حاج.. وصلتَ قبل فوات الأوان. قال أحدهم. فعقّب آخر مع ابتسامة صريحة: دائماً يصل الحاج قبل فوات الأوان.

كان الحاج أشبه بتمثال شمعّي قرّحته الشمس.

تساءل وعيناه تفتّشان المكان بقلق: أين وفاء؟

. ثمة استجواب لا بد منه.

. عمَّ الاستجواب؟

. عن أوكار الجنس والحشيش والسياسة.

جاءت الصفعة قوية مع ذلك تماسك الحاج.. ابتلع ريقه وفكر:

".. مجرّد أوراق للمساومة.. لا حول ولا قوة إلا بالله.."

عموماً، الحاج لا يحسن المساومة، إما أن يدير ظهره.. أو يومئ برأسه موافقاً. لكن ظهره كان مسمّراً على المقعد، لكأن شيئاً من شلل مفاجئ إصابه.

. أين وفاء؟

ثانية سأل، وذقنه ترتعش، مغفلاً ما سبق أن سمعه، لكأنه يوقّع على شيك مفتوح لأناس بلا أسماء وبلا هويّات والمسدس مصوّب إلى دماغه.

. هاتِها يا ولد..

. لكننا يا سيدي لم نستكمل الـ...

. أقول هاتِها

لحظات، وجاءت وفاء بوجه يقطر رعباً، وبقدمين نصف مشلولتين. وما إن رأت جدّها حتى فغرت بالبكاء. فقال الحاج بصوت مشروخ، مغالباً أثقال اللحظة: لا عليك.. اذهبي إلى السيارة.

حاولت وفاء أن تجرّ قدميها العاجزتين. فوقف أحدهم يسدّ طريقها.

. دعها يا ولد.

وفاء تكاد لا تصدق أنها تستطيع الإفلات من قبضة الكابوس، فتحركت بتوجّس جارّة قدميها تجاه السيارة الفارهة التي لم تتنازل لحظة عن كبريائها وألقها.

ثم تبعها الحاج

بصمت ثقيل أدار المحرّك، وانطلق دون أن يتبادل مع حفيدته أيّة كلمة.

".. لا حاجة لأي سؤال أو استفسار.. كل شيء معروف وواضح.. وزمننا يحتمل كل شيء.."

ذلك ما فكر به الحاج، وأصابعه المتوتّرة تضغط بعصبيّة على المقود.

أما غضبه فقد وجد من الكولونيل مشجباً يتعلق به.. ".. كولونيل آخر زمن.. لا يستطيع أن يحمي حتى ابنته.. بل حتى نفسه! .. أية لعنة جمعتني به؟!" الكولونيل بدوره تلقى اتصالاً هاتفياً يطمئنه بأن ابنته عوملت معاملة خاصة، وأنها في طريقها إليه، مع ا لتذكير بأن على الآباء أن يتحملوا مسؤولية كونهم آباء على الأقل.

.. لا أحد اليوم أو غداً يريد أن يتذكر تلك الحادثة. الكل تعامل معها كتعاملهم مع حلم مزعج ذهب إلى غير رجعة، باستثناء سومر، الذي بقي يلوّح بها كلما أراد تنغيص حياة وفاء، معتبراً أن هذه "العائلة البغيضة" تشكل خطراً عليه وعلى مصالحه.

وحده الطلاق أعاد لتلك الحادثة حضوراً مهيباً وبهيّاً في إطار النسيج الحيّ لذكريات كثيفة الحضور والترابط.

".. التاريخ ليس مجرد حكايات وذكريات.. ومشاعرنا كبشر ليست ترفاً ولا زوائد تقتاتها ديدان الحياة اليومية.."

ذلك ما أحست وفكرت به وفاء، وهي تحزم أمتعتها، أمام فيض شعورها بأن الطريق إلى القرية أصبح معبّداً لدرجة مُرضية، وأنها منه وإليه قد تطير بأية لحظة، لكأنها على موعد مع نادر، ذاك الذي بات يشكل لها عمقاً روحيَّاً، هي بأمس الحاجة إليه.

لكن وعيها الممض بأن ثمة فراغاً، فجوة، تنخر ذلك الطريق، راح ينغّصها، تاركاً ما يشبه الصقيع، يتسلل رويداً رويداً إلى أحاسيسها الدافئة والملتبسة. مما يحملها على الارتياب بكل ما يراودها، ومن ثم الانكفاء على شعور قاس بالخواء، يَضمر معه شعورها بالذنب.

" هل أنا مجنونة حقَّاً؟ وأية رغبات هذه التي تلحّ علي لأقيم جسوراً خلفية مع.. مع من؟!"

مع ذلك، كان ثمة إصرار مبهم وعميق على ركوب موجة الجنون إلى حيث لا تدري.

***

الفصل الثامن عشر

على الطريق ذاتها إلى القرية، بدأت الذاكرة تتلمّس الأشياء والحقول، وكانت الشمس التشرينية الناعسة، تذبّ عنها الغيوم الصغيرة المسرعة نحو الشرق الصحراوي الكفيل بابتلاعه.

ويشخر الباص، ويتوقف.

. هوياتكم.

بسرعة وبصمت، امتدّت الأيدي بالهويّات الشخصية، ومن ثم تابع الباص سيره لاهثاً تحت ضغط نزق السائق الشاب، المتربّع على مقعده كحجز أصم، في حين استدارت أغلب الوجوه، لتسترق نظرات سريعة نحو الحاجز الأمنّي، الذي راح يبتعد، لكأنها تتوجس إجراءً منسيّاً، قد يتداركه رجال الأمن في اللحظة التالية.

لم تجد وفاء ما يبرر كل ذلك القلق المتواري في العيون، أو خلف الكلمات المتبعثرة القليلة، والتي قد لا تعني أكثر من زفرة ارتياح، كأن يقولوا: الجوّ يميل للبرودة.. السفر متعب.. الطريق رديئة.. الخ

وعادت الذاكرة تلملم بعض سيرتها الذاتية، وتواكب الطريق نفسه.

".. في الماضي لم يكن ثمة حواجز.. مع ذلك فالهويات هي الهويات لا أكثر.."

أمام الحاجز الثاني، تلكأت وفاء بتقديم هويتها، متسائلة: ليش الهوية؟!

. بدون ليش. أجاب الشرطيّ متأففاً، وانتزع الهوية من يدها.

طالعها، ثم رماها لصاحبتها، وتابع مهمته.

لكنه عاد كمن نسي شيئاً، وتساءل: لمن هذه الحقيبة؟

. لي

. افتحيها.

أحسّت وفاء أن غلطاً غير مفهوم يسكن الشرطي، مع ذلك لامت نفسها على أسئلتها الزائدة، وفتحت حقيبة السفر.

فتّشها بطريقة استفزازية، ثم أشار إلى حقيبة يدها، قائلاً بلهجة آمرة : وهذه.

انصاعت وفاء للإشارة الصارمة، ابتلعت شعورها بالإهانة، وفتحت حقيبة اليد بلا مبالاة متعمَّدة.

. (عالم ما بتمشي إلا بالعصا) قالها وهو يقلّب بنزق محتويات الحقيبة.

ثم تركها ومضى وسط عاصفة من الصمت، الذي أربك كل الوجوه بما فيها وجهه.

ـ الله يرضى عليكِ يا أختي.. العين لا تقابل المخرز.. بذلك همست جارتها وهي تجذبها بصمت: أن اسكتي.

بعنف واضح تحرّك الباص، مندفعاً أكثر فأكثر، ساحباً معه وإليه إحساساً مكثفاً بأن السفر لعنة بقدر ما هو ضروري، إلى أن لاحت القرية من بعيد، عجوزاً ريفية طيبة، أقبلت تدبّ بسهولها ووعرها، ببساطتها وإلفتها، وبفيض ذكرياتها، إلى أن استوقفت الباص، ونزلت وفاء.

كان ثمة قباب نصف مهدّمة، وجدران مقشّرة، وطريق اسفلتيّ منخور، وأولاد يركضون خلف كتلة قماشية صغيرة تشبه الكرة، يركلونها، يتدافعون خلفها، يسقطون، ينهضون مسرعين، يتابعون الجري والركل بحماس، ودون هدف واضح.

وتقف سيارة دوج صفراء صغيرة ليطل منها رأس أشمط بعينين صغيرتين

قائلاً:

. تفضلي يا آنسة لأوصلك

. شكراً.. وصلت البيت.

. أي بيت؟ أنا ابن القرية يا آنسة وأعرف.. فقاطعته وفاء بنزق قائلة:

ـ هذا بيتنا يا رجل.. الله معك. تحركت السيارة الصفراء مخلفةً بعضَ الغبار، وثلة من الأولاد كانوا قد توافدوا، ووقفوا عن كثب يراقبون ويتهامسون بوجل، إلى أن برز أحدهم ليمسك دون تردد بيد وفاء، لكأنه يعلن امتلاكها دون الآخرين.

. أهلاً زياد.. أهلاً حبيبي.

في حين تنافس الآخرون على حمل حقيبة سفر "هذه الحلوة" ويلغطون بإجابات متداخلة وصاخبة على أسئلتها، ويستطلعون وجهها الذي راح يوزع عليهم الابتسامات ويصبح أكثر فأكثر قريباً إليهم جميعاً.

وعن كثب لاحت أم نادر الواقفة أمام منزلها، وتساءلت وهي تحدّق من خلف كفّها المتصالب مع جبينها: وحدك؟

. وحدي. أجابت وفاء مع ابتسامة عريضة وحذرة.

. خير إنشاء الله؟

. زيارة. وضحكت وفاء محاولة كسر تلك الأسئلة التي لم تر ما يبررها.

. أهلاً وسهلاً. وفتحت أم نادر ذراعيها ككل امرأة ريفية.

وجاء من يغمض عينيّ وفاء من خلفها.

. من؟! تساءلت وهي تتلمسّ كفيّن كبيرتين وحانيتين.

. احزري.

واختلجت وفاء، حيث ارتطمت بصوته!

. مستحيل! قالت ذلك بوهن فاضح، وكمن يحدّث نفسه.

وقرقعت ضحكته. وانزلقت يداه إلى يديها.

طفرت روحها إلى فمها وهي تستدير لمواجهته.

ثم انكمشت للحظة، إلى أن قهقهت بصوت شارف حدّ البكاء، وهي تردد:

. أنت؟! أنت يا خبيث؟!

وتتأمل إلى أيّ حدّ سرق من أخيه ألوان صوته!

بسرعة وصخب، جرّها عصام من يدها إلى الداخل، بينما راحت تلوّح بالأخرى للأولاد، الذين بادلوها الابتسامات الودودة، وهزّوا برؤوسهم علامة الصداقة الدائمة.

***

الفصل التاسع عشر

بسرعة تألف هذا الـ "عصام" جريء لدرجة الوقاحة. سلسٌ كالماء، مشاكس، أليف، متحفّظ، طريف لدرجة التهتُك.

وعندما ناكدته وفاء، لم يتورّع عن صفعها على مؤخّرتها.

أربكها تصرّفه الأرعن هذا. مع ذلك استطاع أن يجرّها ببساطة، وعَبْرَ قهقهاته الصاخبة والمتحدّية، إلى مزيد من الشقاوة والخصام والمرح، وكأن شيئاً لم يكن! "..غريب أمره! يستحيل على المرء أن يعرفه تماماً برغم كل هذا الوضوح!"

ذلك ما فكرت به وفاء، وهي تستعيد تفاصيل حركاته وكلماته، لاجمةً نفسها عن الضحك، بينما كانت تسير بمحاذاته في طريقهما إلى البستان.

كان الفضاء الريفيّ المفتوح، وكل هذه الشمس الواضحة والصريحة، يهبان وفاء شيئاً من الإحساس بالحرية والثقة بالنفس والشجاعة.

وراحت تتحدّث بحميمية عن نادر، وعن الكلمات الكبيرة التي تليق به.

وحاولت أن تتذكر المزيد من تعابيره الثورية التي كانت تمجّها من قبل، شاعرة من خلالها أنها أقرب إليه من أي وقت مضى.

بل راودها إحساس طاغ بأنها تزوجته إلى حدّ ما، مما جعلها تنسى لا مبالاة عصام، إلى أن كشّر هذا عن ابتسامة ممتعضة، وقال:

ـ عمّ تتحدّثين؟!أنت مجنونة، نادر وقع وثيقة اعتذار وإدانة لماضيه، وقد

يخرج قريباً، واعداً أن يعود إلى القرية.. من المؤكّد أنه لن يفكر بقيادة ثورة حمراء من هنا على طريقة "ماو" أليس كذلك؟؟ أقصى ما يستطيعه هو أن يتزوّج ريفية بسيطة، قادرة على الإنجاب، وقادرة على العمل في الأرض، وقادرة على البكاء عندما تضيق بها الدنيا.

أجفلت وفاء لسماع ذلك، وقالت كمن أهين، وبصوت راعش:

ـ عصام.. أنت كذّاب.. أنت غشّاش، ثم من قال لك أن نادر سيدفن نفسه هنا؟! لن أسمح له.. سأنقله إلى العاصمة فور إطلاق سراحه.

. لا أنصحك بالمحاولة.

ثم غمغم كمن يحدّث نفسه: مسكين أخي.. خُلق فقط ليكون مدرّساً جيداً.. أو صوفيّاً رديئاً.. بوسعه أن يقاتل حتى الموت دفاعاً عن حلم ملموس، أما الأحلام غير الملموسة، فقد جرّبها، وسقط معها.

. من أين لك كل هذا اليأس؟!

. العبودية الطويلة علمتني أن التاريخ ابن كلب.. ويجب احترامه.

. أأنت تتحدّث هكذا؟!مع أنه كما يقال كنت..

ـ أنا لم أكن شيئاً.. كنت أقرأ متأثّراً بنادر.. وأتعلّم الاحتجاج على كل شيء..

ابتداءً من اللهاث خلف الدواب، وصولاً إلى اللهاث خلف الثورة.. وأية ثورة ؟!

. بالنسبة لي ثمة مسائل شخصية أيضاً.

. أخي آخر من يُعتدّ به في المسائل الشخصية.

. تتعمّد إخافتي؟!

. بل أتعمّد تنظيف رأسك من الأوهام.

. أنتَ قاس.. تعلمتَ الجلافة من الأرض.

ـ وأنت ليّنة حتى الهشاشة.. تعلمتِ الأحلام الفارغة من التلفزيون والأفلام الكرتونية، و اصطدما بصوت مرحٍ جاءهم عن كثب: لا تصدّقي عصام.. إنه مجرد نسخة كاريكاتورية عن زوربا. وأعقب ذلك بضحكة هادئة.

فهمست وفاء: من هذا؟

فأجاب عصام: ابن عاهرة.. كان صديقاً لنادر.

واقترب الرجل. كان في الثلاثينات من عمره. أسمرَ اللون، متوسط القامة، بشعرٍ فوضوي، وعينين لامعتين، وحيّا بقوله:

. السلام

. أهلاً، قالت وفاء.

. مالك لا تردّ السلام أيّها التيّس؟! تساءل الرجل، فأجاب عصام ببرود:

. كنا نتحدّث بأمور خاصّة.

فعقّبت وفاء بشيء من المناكدة: بل بأمور عامة.

فقال الرجل بلهجة مؤنّبة: عصام لا يحبّ إلا الخاص. وتوجه سائلاً وفاء:

. هل من جديد عن نادر؟

فأجاب عصام على الفور: نادر رفع يديه.

. لماذا تستعجل رفع أيدينا؟!

. ومن يبحث عن يديك أنت؟! والتفت عصام إلى وفاء قائلاً بنزق: تعالي.

وحاول جرّها من معصمها.

لكنها سحبت يدها وهي تصرخ بغيظ: اتركني.. مالك؟!

فدفع يدها وانصرف حانقاً.

ـ لا يكدّرك أمره.. أنه وَلد.. سيرضى بنفس السرعة التي غضب بها. قال الرجل ذلك وهو يبتسم بود، ثم أردف: أنا أعرفك بعض الشيء.. حدّثني نادر عنك.

فعقبت وفاء: لم نتعارف بعد. فقال:

ـ اسمي أيهم.. مهندس كهرباء.. إلى .. ومن المدينة يومياً.. متزوج ولي طفلان..

. أ أنت..؟

. قد لا نعيش حتى الوقت الذي يمكننا فيه التصريح بهويتنا.

. هل صحيح ما قاله عصام عن نادر؟

. لا أعتقد.. عموماً عصام يتمنى لو يخرج نادر بأي ثمن.

. لم لا؟

....

. أسألك لم لا؟!

. لا أدري.. أخشى أن يصبح شيئاً آخر.

. كيف؟

. كأن يقتل صورته التي أصبحت جميلة.

. لكأني بكم تبحثون عن رموز بأي ثمن!

ـ أن نكون مجرد بشر، يعني أننا مرشحون لنكون لا رموزاً فحسب.. بل أنبياء.

. وماذا تفعلون بحياتكم الخاصة، وبأعماركم التي لن ترزقوا غيرها؟

ـ الآخرون يقرّرون ذلك نيابة عنّا. قال ذلك بلهجة ساخرة مع ابتسامة أسى واضحة.

وعلا صوت عصام غاضباً ولاذعاً وهو يقترب من أيهم قائلاً: أنتم مجرد مجانين.. الكوكولا والهامبرغر يسّوقان في الكرملن وأنتم تدفنون رؤسكم في الرمال افتحوا أعينكم يا صديقي

. بالضبط نُجرّم لأننا نفتح أعيننا.

. وهل تصرّ.. والآن تحديداً.. على محاولة غسل دماغ وفاء؟

. لا أصرّ على شيء.. أردت فقط السؤال عن نادر.

. نادر بخير.

. أرجو ذلك.. وأرجو أن تبلغوه تحياتي.

ومد يده إلى وفاء مودعاً ثم مضى بخطوات هادئة، وعينا وفاء تشيّعانه باهتمام واحترام. ثم التفتت إلى عصام متسائلة بامتعاض.

. عصام.. لماذا كنت جلفاً أكثر من اللازم؟

. لا أعرف.. أتدرين؟ ما عدت أعرف شيئاً.. ولا حتى لماذا أعيش!

بل لم أعد أؤمن بشيء.. أشعر أحياناً بفراغ هائل. وعندما ألتقي بهؤلاء أكرههم، أحمّلهم مسؤولية غياب نادر، ومسؤولية الكثير من القلق والغم اللذين نغّصا حياة أسرتي.. وما أن يديروا ظهورهم حتى تخذلني كراهيتي. وأحسُّ بنوع من الإهانة، متسائلاً: هل هم مجرد حالمين يحبون الحياة في حقل ألغام؟

. دعك من هذه الثرثرة.

. كيف يذهبون بأرجلهم إلى جهنم؟!

. اسكت بالله عليك.

. أنتِ تتعاطفين معهم.. أعرف ذلك.

. لا أتعاطف مع أحد، لكنني أتساءل أحياناً: من الذي يجعل الحياة ضيقة.. ولماذا؟!

. الأسئلة اللعينة ذاتها! ألا نستطيع الحياة دون ثرثرة؟

. وهل التفكير بنمط الحياة ثرثرة؟!

. يبدو أنكِ سياسية بالوراثة! ولستِ بعيدة عن المتاعب.

. أنا؟!

. نعم أنتِ.

– وأنتَ

. أنا لا أستطيع أن أكون أكثر من فلاّح، يوفّق بين الفلاحة ودراسة الحقوق، كل طموحاتي ألا أكون رقماً فارغاً، ولا وسخاً.

. ها أنت تتحدّث في السياسة

ـ أبو السياسة.. وأبو العالم.. عموماً أرجو ألا تتورّطي.. وأن تكتفي بما حدث لك من اعتقال مؤقت.

كادت أن تقول له أنها لم تكن متورطة، وأنها اعتُقلت من غرفة نادر وبسببه، وأنها كانت في طريقها للاعتراف له بأنها لا تستطيع أن تتزوّج سواه، بل ولتقرير زواجهما. إلا أن إحساساً غامضاً جعلها تلوذ بصمت مربك، إلى أن أمسك بيدها، ضاغطاً عليها بشراسة، وهو يقول: عديني أن تبتعدي عن السياسة. لم تسمع صوتها جيداً عندما أجابته، وبإذعان: أعدك.

كانت نهب مشاعر مختلطة وملتبسة وطاغية ومُستلبة، أمام الإحساس بهيمنة عصام.

وعندما دافعته بانشداه، لم تصدّق أنه اغتصب القبلة الأولى!

. أنت وحش!! قالت وهي ترتعد، وتتطلع حواليها، لترى حجم الفضيحة. كان ثمة غروب وسماء لا حدّ لها، وفضاء ريفيّ هائل مسكون بالصمت والوحشة.

. ما من أحد. غمغم عصام بذلك، وهو يستدير نحو القرية بخطى مرتبكة.

وسارت خلفه واجمة، دون أن تدري تماماً ما يجب قوله أو فعله.

. هل أعتذر؟

. لماذا فعلت ذلك؟!

. لا أدري.

. أنت مجنون؟!

. لا .. متهوّر فقط.

بصعوبة لجمت نفسها عن الابتسام، ولاكت إحساساً مرّاً بالتواطؤ!

وهنالك في المنزل، تجاهل عصام كل شيء، وانبرى يصخب ويقهقه، ويتحدّث بأسلوب تهكّمي لاذع، تارة عن شجون القرية، التي لا يريد أحد أن يراها.

وتارة عن الأحلام الرخيصة التي يأكلها الفلاحون بعد وجباتهم الهزيلة، عن الشجارات العائلية التي "لا رأس لها ولا ذنب". وعن الحب الرومانسي، الذي يسقط باستمرار في شراك الواقعية.

ثم عرّج على الحديث، بسخرية ضاحكة عن مستقبله كمحام في منطقة القرية، حيث سيضطر للتحوّل كما قال إلى "كاتب عرائض.. أو كاتب تعاويذ.. والله أعلم."

فانفجرت وفاء بالضحك، ثم تساءلت: لماذا لا تجرّب حظك في العاصمة؟

وخزه إحساس بأنها دعوة ملتبسة. تأمل وجهها، فضبط عينيها وهما تهربان تحت ضغط إحساس مماثل. وبعفوية قال: سأذهب، تاركاً أمّه تحتج، وتشتم العاصمة، مختتمة ذلك بقولها: ألا يكفيها أنها ابتلعت نادر؟!

فهيمن وجوم عام، حيث بات الحضور الكثيف لنادر الغائب، يلقي بظله على الجميع، وسط مشاعر سرّية، يثقلها إحساس ما بالذنب.

لكن عصام أصرّ على كسر ذاك الوجوم، فبادر إلى حركات وأقوال طريفة، انتزعت الكثير من الابتسامات والقهقهات، إلى أن قال وهو يحدّق بعيني وفاء مباشرة:

. أما أنا.. فسأبتلع العاصمة، وقهقه بصخب، ملاحظاً بلذّة، كيف اضطربت، وكيف علت وجنتيها حمرة خفيفة.

* * *

الفصل العشرون

. ما الذي يضحكك؟!

تساءل أبو نادر، وهو يدلف إلى الغرفة بخطواته الثقيلة المتعبة.

كتم عصام استياءه، وراح يعبث بأصابعه، ويفكر: لن تضطرني أيها العجوز للرحيل إلا في الوقت المناسب".

وانكمشت وفاء، في حين أشارت له أم نادر: أن سلّم على الضيوف أولاً.

. أهلاً أهلاً.. أ أنت هنا؟! كيف حال أمك وأبيك؟

. بخير والحمد لله، ونهضت وفاء تاركة عمها الطيّب يحتضنها، ويقبّلها.

وشمّت فيه رائحة التراب والتعب. وقدّرت بأسف أن سنواته الستين حفرت تجاعيد أكثر من اللازم في وجهه الحنطيّ الجاد والأليف.

تربّع، وراح يسامرها. تساءل عن المدينة. عن الأحوال التفصيلية لأسرتها بلغة حميمة، ثم انتقل للحديث عن الأرض، وعن حلمه بموسم جيّد يخلّصه من هموم الدَّين. وعن مشاكله مع المصرف الزراعي، ومع إدارة معمل الكونسروة، التي تسببت بإتلاف موسم البندورة في العام الماضي.

".. إذا لم ينجح الموسم بسبب الصقيع، أو قلة المطر والري، أو ضعف قدرتنا على التسميد، يقولون: أنتم كسالى تحبون الفقر!

وإذا نجح، يقولون: المعمل لا يستوعب كل هذا الإنتاج! وفي كل الحالات

نجد المصرف جاهزاً لتضييق الخناق علينا، حتى الحجز.. العمى!!"

لكن أم نادر لم تدعه يسترسل، فقاطعته قائلة: وفاء أمنّت زيارة لنا. شادّة بذلك الحديث تجاه همومها هي.

فتساءل أبو نادر بارتباك: متى؟!

أجابت وفاء، مع ابتسامة راضية: بعد يومين.

حكّ أبو نادر رأسه، وقال: أبو صالح قال: "سيُطلق سراحه قريباً".

فعقّبت أم نادر بحنق: أتصدّق هذا الكذاب؟! كم مرة قال لنا ذلك؟!

تساءلت وفاء: من هذا الـ أبو صالح؟!

أجابت أم نادر: هذا واحد أزعر، وزلمة حكومة ببلاش، فعقّب أبو نادر:

. مين قال ببلاش؟! كل شيء بحقّه وحياتك.

فتساءلت وفاء ثانية: لم أفهم من هو؟

أجاب أبو نادر: واحد علاقاته كثيرة ومتداخلة وغامضة، وملعون والدين، آنئذ وجد زياد فرصته ليقول شيئاً. فقال لوفاء:

. أبو صالح هو أبو السيارة.

. سيارة الـ "دوج" الصفراء.

. هو بعينه.

. آه.. قلبي قال لي "هذا عكروت".

أم نادر تدرك أن المسألة أولاً وأخيراً هي مسألة تكاليف الزيارة.

"وإلا ما الذي يمنع من رؤية نادر، ولو قبل يوم من إطلاق سراحه؟!"

أحاسيسها كأم لا تسمح لها بالتريّث. لكن أبا نادر مضطر باستمرار لتدقيق حساباته الصعبة. وعندما يشعر بالإحراج، أو بأن الأمور معقدّة، يلجأ إلى عادة حك الرأس، لكأنه يفتش فيه عن حل غير متوقّع، وأقلّ إيلاماً.

. نبيع العنزة. قالت أم نادر، لكأنها أدركت ما يجول برأس زوجها. ومن ثم تطلعت إلى طفلها زياد، لكأنه وحده المعنيّ بالعنزة، حيث بات صديقها، والمسؤول الأول عن رعايتها كمهمة محدّدة لهذا الولد، الذي لا يمكن أن يحسن عملاً آخر.

فتساءل زياد باستياء: العنزة؟!

. من أجل نادر. قالت الأم بلهجة حنونة، وقاطعة، أغلقت الطريق أمام أيّ اعتراض كان.

ـ أهذا وقت عنزتك يا أمي؟! قال عصام متسائلاً باحتجاج يضمر ثورة على وشك الانفلات. وتطلّع إلى عينيّ وفاء، معتذراً عن "مثل هذه السخافات".

ـ هذا وقت نادر يا عصام. كذلك أجابت الأم ببرود وتحدّ ويقينيّة أوجعت زياد، وجعلته يلتصق بأمه، لكأنه يعتذر عن معارضته. وعند ما هدهته، استراح في حضنها، وراح يستحلفها أن تأخذه معها لزيارة أخيه، الذي لم يره إلا في الصور الماثلة على الجدار!

. لا حول ولا قوة إلا بالله. قال أبو نادر ذلك، وهو يحرّك يديه لكأنه ينفض عن كاهله ركاماً من المخاوف والأسئلة، التي لا يريد أن يواجهها هكذا وبصراحة.

وفاء كانت فاغرة فمها وعقلها إزاء هذا الواقع الثقيل، في حين كان عصام يلملم عري واقعه المفضوح بعينين مظلمتين، ومليئتين بشهوة الموت، إلى أن نهض كالملسوع، وخرج وهو يغمغم بكلمات سامّة، يريدها أن تصيب كل البشر! أما زياد فما لبث أن نام مرتاح الضمير، بعد أن سلّم ببيع صديقته العنزة إلى الأبد، من أجل نادر.

وبعينين نصف مغمضتين كان أبو نادر يتفحصّ عالمه الظالم، تاركاً دفّة التوجيه لزوجته، التي يستطيع أن يمنحها مطلق ثقته، حتى ولو قادته إلى جهنّم!

في حين بقيت أم نادر ترمش بعينها الكليلتين، مع إحساس عال بالمسؤولية والرضى. ثم التفت إلى وفاء وهي تبتسم لكأنها تقول: "نحن جاهزون".

هربت وفاء بعينيها، وهي تهجس: كم هي لئيمة الحياة الضيّقة!!" وراحت تفكّر بطريقة تمكّنها من تحمّل نفقات الزيارة، دون أن تجرح كبرياء هذه الأسرة. غافلةً عن كون أم نادر تغصّ بسؤالها القديم الجديد: "لماذا لا يستطيع أبوها الكولونيل فعل شيء؟!" غير فاهمة معنى أن يكون حتى أبو صالح أكثر قدرة منه على الحركة! ".. على الأقل.. هذا كان يعدنا.. صحيح أنه كذَّاب.. لكن الصحيح أيضاً أننا نحن بدورنا لم نستطيع . بلّ ريق القادرين على إطلاق سراح نادر . كما قال أبو صالح بصراحة."

..كانت فاتورة الحساب كبيرة، لدرجة أن أم نادر نفسها، والتي لا تتردد ببيع قلبها من أجل نادر، قرّرت: لا يجوز التضحية بكل العائلة من أجل واحد.. هذا حرام.

تلك الفتوى نزلت برداً وسلاماً على قلب الأب المحاصر بين مسؤولياته تجاه أحبِّ أبنائه، وبين الإقدام على انتحار جماعيّ.

.. طويلاً ستتذكر وفاء تلك الزيارة.

الله وحده يعلم كيف مضت نصف الساعة الطويلة القصيرة تلك، دون انهيارات عصبية، أو دون جنون حقيقي!

والإجراءات الأمنيّة المعقّدة، لم تحل دون انفلات المشاعر الكامنة، والقادرة على إغراق كل شيء ماعدا يقظة الحراس المعتادين على هكذا نوع من الجنون.

هي نفسها كانت مجنونة فعلاً، وهي تندفع إلى نادر بشعور المرأة، التي تُزفّ إلى حبيبها. اقتنصته قبل أمه.

كان صدره الواهن محطة استراحة لمشاعرها الكامنة والمحروقة.

والتي تُوّجت بابتسامات مبللة بالدموع والأحلام الخضراء.

لا تدري كيف بدأت الزيارة، ولا كيف انتهت:

ثمة أوامر دقيقة تدخّلت من حين لآخر، وفقَ نظامها الأمني الخاص، غير عابئة بردود فعل الناس، ولا بمشاعرهم، إلى أن تدخّل الأمر الصارم ليقطع شريط الزيارة الحلم بإشارة من يده.

في طريق العودة، الكل كان يفتّش عن التفاصيل الهاربة.. وكانت رائحة نادر ملء الأنف والذاكرة.. وكان حزن شفيف يغلّف بقايا الابتسامات العالقة على الوجوه.

زياد وحده لم يستطع إقامة أية علاقة مع هذا الأخ، الذي لا يعرفه إلا صورة جداريّة، كان يحادثها من حين لآخر، تشجعّه تلك الابتسامة الطيبة، التي ألفها وارتاح إليها. خاصة وقد اكتشف المكانة المؤثرة لنادر، من خلال ما استجره من دموع ملأت عينيّ أمه، خلال الأماسي الكثيرة الماضية، مما جعله يحتمي بنادر كلما همّت أمّة بعقابه، إثر ذنوبه أو مشاكساته التي لا تعدّ.

وكان نادر المثبّت على الجدار يحميه فعلاً، لدرجة أن أمّه لا تغفر له

فحسب بل تحتضنه، وتبكي أمام الصورة

أما ذاك الـ "نادر" القادم من خلف أبواب وقضبان حديدية لا عدّ لها، ووسط ثلّة من العساكر المخيفين، فقد بدا شيئاً آخر مختلفاً، بوجهه الشاحب، وعينيه الغائرتين، وبابتسامته الداكنة، التي لا تشبه تلك الابتسامة المرحة في الوجه النضر والعينين اللامعتين. الماثلتين على الجدار. فبدا شبه حياديّ، راغباً في التخلص من هذا الجوّ الكابوسيّ المخيف، والعودة سالماً مع أمه وأبيه ووفاء، دون أن يفكر ثانية بالاصرار على مثل هكذا زيارة.

ومتسائلاً بدهشة: ".. لماذا يفضّل نادر البقاء هناك؟ ولماذا لا يعود مع هؤلاء الذين يحبونه، ويبكون من أجل أن يأتي؟!

أمّا وفاء، فثمة أكثر من خيبة علقت بمشاعرها وأحاسيسها، بدءاً من القرية وانتهاء بالزيارة.

فامرأة عمّها صادرت حقّها في المساهمة صراحة بنفقات الزيارة، مقدّرة أن الكبرياء وحده لا يشكل مبرراً كافياً. بل لابدّ أن يكون لتصنيفها كغريبة إلى حدّ ما، وغير معنية بالأمر مباشرة، دوره بالتأكيد.

ثم إن نادر نفسه لم يبدُ عاشقاً حقيقياً، يرسل الإشارات الخفيّة، التي يمكن لقلبها أن يلتقطها "على الطاير". بل كان أشبه بفيلسوف مكسور، يريد "لهؤلاء المجانين" أن يعقلوا!

صحيح أنه ضمّ الجميع، وقبّل الجميع، لكنه قبّلها كما يمكن أن يقبّل أية امرأة أو رجل وافاه خلال الزيارة! مما جعلها تتذكر بانكسار قول أمها بأنها "مجنونة" مجنونةٌ لا يريد أحد أن يعترف بآفاق وطبيعة جنونها الجميل، مما عزّز شعورها بالاغتراب والوحدة، وبأن لا قيمة لكل ما تملكه من خامات حياتيّة، رشحّتها في يوم من الأيام، لتكون ما لا تدري كيف تكونه!

الكل كان يرغب بها، الأصدقاء، الزملاء، الأساتذة، شباب الحارة، نادر وأمثاله.. صحيح أنها لم تستطع الاحتفاظ بأحد من هؤلاء لكن أحداً منهم لم يستطع الاحتفاظ بها، مما يجعلها غالباً تنقم عليهم جميعاً، مع شعور غامض بأن ثمة خطأ أكبر من الجميع، كأن يكون هذا العالم لا يتّسع لأن يكون الإنسان هو نفسه!.

وفكّرت فيما يمكن أن تكونه، لتكسر هذا الحصار، الذي يضيق أكثر فأكثر على جسدها وروحها.

ثم قدّرت أن تعلقّها بنادر، ليس أكثر من تعلّقها بفكرة، فكرة نبيلة، قد لا يستطيع هو نفسه أن يتقمّصها كما يجب.

ثم رأت أن انتظارها غير المعلن له، ما هو إلا تأجيل لإعلان خيبتها، خاصةً وأن نادر قال للجميع صراحة بمن فيهم هي، أن يعيشوا حياتهم الطبيعية، وأن يكفّوا عن حساب الأيام، وأن يكفّوا عن انتظاره المتعب.

قالها بلغة متعبّة وحكيمة ويائسة، لدرجة أبكت زوّاره.

".. قد أخرج غداً.. وقد لا أخرج أبداً."!

هل وصف واقعة غريبة تحكم أمثاله؟ أم وصف شعوراً عائماً في فراغ حياته الخاصّة، المعلّقة على احتمالات محدودة ومتباينة لدرجة غير معقولة؟!

لم تتوصل وفاء، إلى تفسير معقول "برغم أنها هي نفسها باتت أقرب للاقتناع بأن العقل لم يعد مقياساً صالحاً لكل ما جرى ويجري من حولها، وبسرعات غير منضبطة، مما يدوّخ أكبر العقول، ويجعلها تستسلم لنوع من الرجاء والقدريّة الغامضة، القادرة على أية انعطافة حياتية، مهما بلغت حدّتها، للأعلى أو للأسفل، ودون أية مقدمات أو مؤشرات، وهذا وحده كفيل بأن يجعلها تبدو أكثر توازناً، وأكثر لا مبالاة، وربما ضياعاً وتهميشاً، مع أقل الخسائر الممكنة من الأحاسيس المحروقة، والطاغية على سطح حياتها اليومية باستمرار.

* * *

الفصل الواحد والعشرون

أبو صالح، الذي تلمّظ حين شاهد وفاء، والذي اضطر للتواري بعد أن أربكته "عجرفتُها" ورفضُها لوضع سيارته تحت تصرّفها، ومع ابتلاعه لشعوره بالإهانة، وإصراره على تتبّع آثارها، إلى أن عرف أنها ابنة الكولونيل، خمّن أنها من هذا الجيل "الملعون" الذي لا يتوانى عن إثارة المشاكل. وغمغم: عموماً.. إذا أصرّت على الذهاب إلى جهنم، لن أبخل بمساعدتها.

وابتسم برضى، ودلف إلى مقهاه، وهو الوحيد في القرية.

رأى الوجوه "الطفرانة" ذاتها تتوزّع رغم قلّتها على مجمل مساحة المقهى. وتذمّر من أن أحدهم يشعر بتملّك المكان طيلة اليوم حالما يطلب ولو "فنجان سمّ الموت! ومضى إلى صدر مقهاه. حيث عامِله العجوز "أبو يوسف" يسند ذقنه على صدره آخذاً "غفوة صغيرة" على حدّ قوله، إلى أن يستفيق على نداء أحدهم.

. "أبو يوسف"

. هاه؟ بذلك أجاب أبو يوسف وقد فتح عينيه.

وإذ رأى معلمه، راح يرمش بعينين كسولتين، معتقداً أن لا مبرر لإيقاظه.

. هات لي كأس عرق.

"العرق والمازة بمتناول يده، مع ذلك هات يا "أبو يوسف" لكأنه يعطيني المنّ والسلوى! كل الأجرة لا تساوي أكثر من حقّ الخبز والدخان.. العمى!!"

ذلك ما فكر به أبو يوسف بحنق. وهو ينهض بتثاقل ملبياً، وبرغم كل شيء، حاجة المعلّم

ـ خلّيهم كأسين عمي "أبو يوسف" قال برهوم، وهو يدلف إلى المقهى، ويحمل كرسيّاً، ليجلس قبالة أبي صالح.

لا أحد يستطيع أن يقول لبرهوم: لا. فهو اليد اليمنى لأبي صالح، الذي يستطيع أن يلقيه في البحر، ليعود إليه دون أن يتبلل!

".. قبضاي حقيقي.. مشكلته أن بطنه واسع لا يشبع، ولا يخجل من كلمة هات!"

. كاسك خيي " أبو صالح"

. كاسك خييّ برهوم.

مع الكأس الثانية، امتزج العرق بالشهوة لفشّ الخلق، وقتل الوقت الفارغ بالثرثرة حول شؤون خلق الله. خاصة وأن ثمة أحداثاً لازالت طازجة تقريباً، وعلى أكثر من صعيد.

حيث أن أمواجاً من البشر، مسلمين ومسيحيين، ومن أربع زوايا البلاد، راحت تتسابق في الأمس القريب عبر كل وسائل المواصلات المتوفرة، في محاولة للحاق بـ "المعجزة" والتبرّك بها، حيث تمثال السيدة العذراء، بدأ يبكي، وبدموع غزيرة، يُقال أنها حفرت لنفسها مجرى صغيراً خلال الأزقّة والشوارع، وصولاً إلى مزار "السيد الرِّفاعي.. قدّس الله سرّه"

وهناك في المدنية ذاتها المعمّمة بقباب تتوسّط مقابر مندثرة لشهداء من كل العصور، كان الوافدون يحتشدون في كرنفال له أوّل وليس له آخر. دون أن يُتاح لهم ولو معرفة مكان المعجزة المباركة.

فقط كان ثمة من يبيع تماثيل مألوفة لأمنا العذراء، مع قطرات من المياه المباركة المعمّدة بدموعها كما يقولون.

وكان الجميع يمسحون بها وجوههم ورؤوسهم مباشرة، باستثناء الأطفال، الذين أصرّوا على رفض كل شيء، بانتظار شراء شراب العرقسوس أو العيران، أو حتى الماء البارد، ليبلّلوا ألسنتهم الجافّة.

وكانت النسوة تشتكي لله عناد الأطفال، وتستميحُ "السيدة" عذراً عن هؤلاء الذين لا يفهمون بعد معنى التبارك والتذلّل.

أما الشرطة الذين أرهقتهم مهمة مطاردة النشالين والزعران من جهة، ومن جهة أخرى حماية النسوة اللواتي لا يجدن سوى الصراخ والولولة أمام بعض الشباب والرجال الطائشين، والمغامرين دون حساب، خاصة أولئك الذين يفتعلون الالتصاق بالنسوة، ويهمسون لهن بكلمات داعرة.

أولئك الشرطة، تنفّسوا بارتياح عندما كُلفوا بمصادرة كل وسائل المواصلات المتوفّرة، مع ركابها.

آنئذ بدأ بحث محموم عن السائقين، بمساعدة الضغط المستمر على أبواق السيارات.

ومن ثم تحركت أرتال الباصات العتيقة بتؤدة، جارّة إليها ركاماً من البشر، الذين لم يَعوا معنى هذه الحركات المجنونة للسيارات، وقُبيل أن يتيسّر للجميع ولو التبارك بدموع العذراء المتوفرة لدى الباعة الجوّالين.

ما أن امتلأت السيارات بركابها، وببكاء الأطفال، وبلغط النسوة واحتجاجاتهن، وبتبرّم الرجال، حتى انطلقت باتجاه واحد، غير عابئة بالاستفسارات والاحتجاجات الصاخبة المتجاهلة لوجود الشرطة، المحشورين بدورهم بين هؤلاء البشر، دون أن يُتاح لهم فرصة كافية لإفهام الناس بأن ثمة مناسبة تستدعي وجودهم، فقط لبرهة من الزمن، ومن ثم ليذهبوا إلى جهنّم إن شاؤوا.

أخيراً لم يكن بوسع الجميع إلا الاستسلام، مع غمغمات وحركات خرقاء لأيديهم المتوتّرة، دون أن يجدوا خياراً آخر للتعبير عن امتعاضهم، وعدم فهمهم لما يجري.

وهناك.. في المدينة الكبيرة المجاورة، والمكتظة بالناس، لفظت السيارات ركّابها، مع تحديد مكان اللقاء القادم.

كانت الأعلام الوطنية واللافتات، وأرتال المنظمات الشعبيّة والرسميّة، ابتداء من تلامذة المدارس الابتدائية، وانتهاء بجمعية المتقاعدين، المردّدين لأناشيد غير مفهومة تماماً، يملؤون ساحات وشوارع المدينة.

وكانت مكبرات الصوت تنقل الأصوات الحادة والصاخبة، والمختلفة الألوان والتدرّجات، دون أن تراعي أمزجة الأطفال، الذين لم يستطيعوا سوى البكاء، وبأصوات مبحوحة، طغت عليها موسيقى النشيد الوطنيّ العارمة، والخطابات التي لم يُدرك الكثيرون مناسبتها، مثلما لم يدركوا مبرر عدم وجود بائعي العرقسوس، ليبلّلوا ريق الأطفال، الذين "طقّوا من البكاء والعطش" مما جعلهم ينسربون جماعة إثر أخرى إلى سياراتهم، التي تنتظرهم هناك.

وبرغم أن بعضهم وصلوا بالكامل إلى سياراتهم، إلا أن السائقين رفضوا التحرّك بانتظار الأوامر، مما أثار الكثير من الجدل والصراخ، وصولاً إلى السباب والشتائم. إذ ما معنى ألا يخضع السائق لأمر دافعي الأجرة؟!

في حين كان السائقون يقسمون بأغلظ الأيمان على أن أوراق السيارات باتت لدى الشرطة.

مع ذلك كانت الأكثرية، خاصة من العجائز، تعتقد جازمة، أن السيارات تستطيع السير دون أية أوراق، وأن هؤلاء السائقين محتالون وشركاء للشرطة.

قبيل المساء، ومع انفراط الحشد البشريّ الكبير، وانطفاء الصخب والضجيج، باستثناء الإذاعة الرسمية، التي بقيت تواصل زعيقها عبر مكبرات الصوت، وإثر وصول الشرطة والأوراق، تحركت السيارات باتجاهات مختلفة، إلى حيث لم يعد بوسع الجميع سوى العودة إلى ديارهم، مع الإصرار على أنهم كانوا محظوظين نسبيّاً، لأنهم اقتربوا "لدرجة الملامسة" من السيدة العذراء. مع

تصريح بعضهم بأنهم رأوا دموعها "تجري كالسيل الجارف" وأنهم حازوا على بركتها، التي يمكن لو لامست كل البشر، أن تعيدهم إلى جادّة الحق والخير.

. كاسك خييّ أبو صالح.

. كاسك خييّ برهوم..

. أخ لو يتركوني أحكم العالم.. ولو لأسبوع..

. كنت بتخربها برهوم.

. إذا ما خربت ما بتعمر.

بالأمس القريب، كادت القيامة أن تقوم! لا أحد يعرف بالضبط من حرك أولئك "الرعاع، الذين لا يفهمون بالسياسة" ولا من علّمهم الصراخ بأعلى أصواتهم ضد "الأماركان، والإنكليز، والفرنساويين" احتجاجاً على

. المذابح الجماعيّة، والتدمير الشامل في العراق". كما يرددون.

قالوا لهم: طوّلوا بالكم.. كلّها يوم يومان، وتنتهي الأمور.. لكن أحداً لم يطوّل باله.. حتى الأطفال تعلّموا الصراخ والشتائم على "الأماركان" وصولاً إلى "العسكر والحكومات" مما أرغم الشرطة على التدخّل بحزم، لاعنين "قلّة ذوق الكبار، وعدم تربية الصغار." مع جرّ بعضهم إلى مراكز التوقيف والتحقيق، لبيان أسباب "كل هذا الشغب" الذي "لا طعم له ولا مبرر". ولضبط المحرّضين، الذين "يتسلّون بتهييج الناس!" في حين توارى الكثير من الشباب عن الأنظار.

ـ قلنا: المقهى يضبّ الشباب، ويحميهم من القيل والقال، ومن البهدلة والسجون، لا فائدة، ناس بجم، لا يعرفون مصالحهم!

. كاس الناس البجم خييّ "أبو صالح"

. فشروا.

وأقسم أبو صالح على أن المشكلة مشكلة المتعلمين قبل غيرهم. وأن هؤلاء ما هم إلا شروراً على أهلهم وغير أهلهم. ثم حمد الله على رجاحة عقل المرحوم والده، الذي لم يدعه يحصّل إلا الابتدائية، ليزجّه بعدها بشؤون الحياة الطويلة العريضة، من زراعة وتجارة، وعلاقات هنا وهناك، جعلت منه رجلاً مهمّاً على

صعيد المنطقة، سواء اعترفت المنطقة بذلك أم لم تعترف

. لا تتعب دماغك على الفاضي خييّ أبو صالح.

. دماغي مدّوزن على المليان.. وحياتك.. كاسك خييّ برهوم.

***

الفصل الثاني والعشرون

الطبيب الخاص للعائلة نصح بإبعاد الكولونيل عن أية مؤثرات نفسية أو عصبيّة. فتداعت فكرة الرحلة إلى القرية، التي هرب منها أيام شبابه. والتي بات يهجس بالهروب إليها اليوم، لتكون محطة استراحته الأخيرة، أو "قبراً نموذجياً لكل التحفظات.. ولكل الأحلام والمتاعب."

. لكنها كقرى القرون الوسطى.. قالت أم وفاء ذلك بامتعاض، فعقّبت وفاء بقولها: لتكن ما تكون.. المهم أنها تريحه.

الكولونيل يدرك أن الاهتمام المبالغ به، والذي سقط على رأسه فجأة ليس دليل عافية، وأن ثمة حالة مرضيّة تربكه وتربك العائلة، مع يقينه أن الاستسلام لها يعني التشوّه، دون الموت، الذي يتمنّاه في هكذا حالة.

لذلك، ومنذ أن وطأت قدماه القرية، حاول أن ينفتّح بلا حدود على الطبيعة البسيطة، العابقة برائحة طفولته، بعيداً عن الدمامل المتقيّحة، والكامنّة في أعماقه، يساعده في ذلك الجميع بلا استثناء، وبحب وحميميّة يشجعانه على استنفار كل طاقات الحياة التي ينطوي عليها، ومن ثم الغرق في جوٍّ من المرح والسعادة الذي قلما تذّوقه. شاعراً بكثير من الامتنان تجاه حنان أخيه وطيبة أم نادر، وحيوية أم عصام، وطرافة زياد. إضافة لحرص زوجته وابنته على منحه كل فرص الراحة الممكنة، مع تسليمه بأن لزوجته خصوصيّة لم تمارسها دائماً، حيث التحفّظ لا يزال يغلب على سلوكها حتى اليوم!

ومع حرصه على عدم الانزلاق إلى متاهة الذكريات الهاربة، المتداخلة والملتبسة، أصرّ على استرجاع ليلى وذلك الزواج، الذي تم دونما ضجيج، فتداعت ابتسامات رفاقه المراوغة، التي راحت تحاصره وتضغط على أعصابه.

" . مبروك." قالها كل منهم بحيادية باردة.

شكرهم يومئذ باقتضاب، طاوياً الحديث عن حياته الخاصة، التي لا يريد لها أن تتداخل وتتشابك مع العام.

لم يدعُ أحداً من رفاقه إلى أيٍّ من حفلتي الخطبة والزفاف. بل لم يجرؤ على ذلك! يعرف كيف يفكرون، وكيف يرسمون خطوطاً حادّة على شاكلة الصراط المستقيم ما بين الجنة وجهنّم.

".. للأفكار جنّتها وجهنّمها.. نعم.. أما الواقع" آخ من الواقع.. إنه متداخل وابن كلب.. يستحيل تفصيله ورسمه على الورق، أو في الأذهان.. إنه مراوغ لا يمكن القبض عليه كليّة.."

لم يعترفوا يومئذ بذلك.. قالوا: في المعركة لا يجوز خلط الألوان."

قد يكون ثمة مبرر لأقوالهم وقناعاتهم الصارمة تلك. حيث كل الجبهات تعاركهم، لكن لون الحلم يصرّ على الاختلاط بألوان تعرجات الواقع العصيّة على الضبط.

".. كنت أدرك أن الحاج عدنان كان يستدرجني إلى منزله، إلى ثروته، بل وحتى إلى.. وكنت أدرك لماذا.. دخلت اللعبة بإصرار، وباستفزاز داخلي، يحمل كل ما ورثته من تحدّ وعناد.. لكنني.. ماذا أقول..؟ نعم أحببتُ ليلى. هل لأنها جميلة؟ أم لأنها..؟؟ لا أعرف لماذا بالضبط. أما كونها ابنة أحد كبار الأثرياء، فلم يكن أكثر من عنصر نقيض في صراع القيم والأفكار، التي زُججتُ بها منذ يفاعتي.. لقد أحبتني وكان ذلك كافياً.. بل أصرّت على الوقوف إلى جانبي، حتى ضدّ أبيها.. لم تكن تفهم شيئاً عن الصراع الطبقي أو غيره.. مشاعرها الخاصة وحدها جعلتها.. جعلتها ماذا؟؟..

يا إلهي.. لماذا كل هذه الثرثرة؟! لقد أحبتني، وبادلتها الحب. وتزوّجتها كما يتزوّج كل عباد الله.. عموماً هذا شأننا الخاص.. أليس كذلك يا ليلى؟؟.."

وكانت عينا ليلى تخزانه وتقولان له: لا تبتعد كثيراً.. أرجوك.

أما أبو نادر، فقد عاهد نفسه منذ بداية الرحلة على أن يكون صمّام الأمان لأخيه، وبالتالي كان يتصرّف معه كأم لطيفة ومرحة، يهمها أن يتعافى

ولدها بأي ثمن.

مما جعله يغضَّ الطرف عن كل ما من شأنه أن يغضبه عادة، كتلك الحركات الصبيانية لـ "الأحمق عصام" والتي رأت فيها أم نادر شيئاً من "قلة الذّوق.. وعدم مراعاة لحرمة الضيافة.." مما جعلها تنهره خلسة، طالبت منه أن "يستحي" لكنه اكتفى بتكشيرة ساخرة ومستهترة، نكأت بعض جراح أم نادر القديمة، فتمنّت أن تنتهي هذه الرحلة على خير.

الفصل الثالث والعشرون

أم وفاء قدّرت أن الرحلة إلى القرية ستدوم يوماً أو يومين على الأكثر. في حين أضمرت وفاء أنها لن تمانع في استمرارها لبضعة أيام..

ومع إصرار الكولونيل على تمديدها، تدخّل أبو نادر، مقسماً برأس المرحوم والده، أنه لن يسمح لهم بالرحيل قبل نهاية الأسبوع على الأقل. مما أفرح الصغير زياد، ذاك الذي لم يرَ في الأصل سبباً مقنعاً لرحيل هؤلاء الأقرباء الذين يتمنى لو يبقوا معه إلى الأبد.

أخيراً تقررت نهاية الرحلة، مع تأكيد الجميع على أنها لن تكون الأخيرة.

ومع اقتراب الموعد المحدّد، تربّع عصام قبالة الكولونيل. كابحاً قلقه وهواجسه. ليطرح مستقبله كله على بساط البحث.

. لم تهنئني لنيلي شهادة الحقوق يا عم!.

. ألف مبروك يا عصام.

. أفكرّ بالمحاماة.. ما رأيك؟

. معقول " الله الموفق.

فعقّبت وفاء، وهي تبتسم ابتسامة ذات مغزى: هذه مشكلتك.

ثم استطردت قائلة: دع عمّك من مشاكلك، وخذ قرارك بنفسك.

".. اللعينة!! تصرّ على إحراجي.. هي نفسها دعتني إلى العاصمة.. فما الذي أرادت قوله الآن؟!"

ويصرّ عصام على عدم ضياع فرصته، فيتابع كمن يتحدث إلى نفسه:

. المشكلة مشكلة التدريب.. ولسنتين.

ويتطلع الكولونيل الذي فهم أبعاد المشكلة، إلى أم وفاء، فإلى وفاء، مستطلعاً ردود فعلهما، آملاً أن تكون إيجابية، ليتمكن من إعلان موافقته وبسرور.

معتقداً أن وجود إنسان قريب وموثوق إلى جانبه الآن، ليس أمراً سيئاً.

إضافة لتقاطع ذلك مع رغبته في تقديم أية مساعدة ممكنة لبيت أخيه، الذي يكّن له كل الحب.

أم وفاء، لم ترّ في الأمر مشكلة. وفكرت: "حين يُصبح مشكلة، سنتخلّص منه ببساطة." فأبدت حيادّيتها ولا مبالاتها.

أمّا وفاء التي اعتقدت أن الأمر تقرّر وانتهى بمجرّد عرضه، والتي أرادت من خلال تعقيبها السابق، استباق الأمور، وتسجيل نقطة احتياطية لا غير. آثرتْ بدورها أن تظهر بمظهر حياديّ، تاركة والدها يقرّر بارتياح:

. المشكلة بسيطة، جهّز نفسك وتعال معنا، فبيتنا بيتك.

كل ردود فعل الدنيا المحتملة، وأيّاً كان مصدرها، لم تعد بذات قيمة بالنسبة لعصام.

"سأمتصّها لو وُجدتْ." كذلك فكر. وهجس بقوة: " على هذه الحياة العاهرة أن تتّسع لي أيضاً."

ورفض حتى صُرّة ثيابه التي أعدّتْها أمه، قائلاً بنزق:

. هذه لا تصلح إلا للقرية.

فرمتْها الأم، بصمتٍ لا يعرف كيف يعبّر عن نفسه، مع نظرة غائمة إلى

البعيد البعيد.

. لا تنسي أن ترسلي لي السيارة الصغيرة. قال زياد لوفاء، وهو يشدّها من طرف بلوزتها لتسمعه جيداً. فأجابت وفاء:

. سأرسل لك سيارة وقطار وحياتك.

ـ وطابة حلوة كمان، أضافت أم وفاء، وهي تقبّله وتودّعه بدورها. مخلّفة إياه يتطلع باعتزاز ودهشة إلى وفاء، التي بدأت تقود السيارة المرسيدس السوداء على مهل، حاملة معها ذكرى طيبة لأسبوع حافل بالمشاوير والفرح.

.. كل البدايات في العاصمة كانت سهلة ومتوقّعة بالنسبة لعصام، إلا مع وفاء!

ـ لماذا كل هذه الألاعيب والمناورات؟! قالت ذلك بدون أن تتخلى عن ابتسامتها وثقتها الكبيرة بنفسها.

فتساءل عصام بحنق مضمر: ألاعيب ومناورات؟!

. طبعاً .. ألا ترى أننا لم نعد صغاراً؟

. أنا لن أكبر لحظة واحدة أكثر مما أريد..

. كل المجانين يتحدثون هكذا. ومضت مع ابتسامة ساخرة.

وانسحب عصام معترفاً بهزيمته الأولى، مع يقينه بأن حساباته وتصوراته لا تفتقر للدّقة.

".. هل الأمر مجرد دلع بنات؟"

لم تكن المسألة مسألة دلع بنات وحسب. كانت وبالدرجة الأولى مسألة تدقيق الحسابات. فوفاء لم تعد تلك المراهقة التي يمكن اللعب بعواطفها، ولا التي يمكن أن تجري وراء عواطفها ببساطة. نعم كان ثمة عواطف ورغبات، وثمة مشاعر وأحاسيس أنثوية ملجومة، هي نفسها التي تؤرّق عيني وفاء أحياناً، وهي نفسها التي تكبح جماحها عندما يستفزّها "هذا الفحل المجنون" فتتراجع عن غضبها، وترقد في مخدعها تلملم اضطرابها، خشية أن يطمع بها "هذا الخبيث" الذي يجب أن يتروّض قبل كل شيء.

كانت ثمة تصورات كثيرة ومربكة، بعضها وليدة الريبة، وبعضها مشتهاة، تفرزها لحظات الوحدة والفراغ المتوترة.

لكنها لم تتصور إطلاقاً أن يسقط عليها كالصاعقة!

. مجنون!

. . .

. اغتصاب؟!

. . .

. سأصرخ والله

. . .

. دعني وإلا سأهدم الدنيا على رأسك.

. . .

لا تدري تماماً كيف سيطر عليها، كيف افترشها دون إنذار، ولا كيف تمدّد بعدها مستسلماً لشتمائها المختلطة بدموعها!

كانت مذهولة لدرجة الشلل، رغم أنها لم تفاجأ كليّة، حيث سبق أن وضعت في حسابها حتى إمكانية تسلله إلى مخدعها كثعلب صغير، يمكنها اللعب به كيفما شاءت. كأن تطرده بإشارة من يدها، أو كأن تتسلى بتوسّلاته الوقحة، معتبرة إياها قمّة الجرأة، تاركة مسافة تحدّدها هي. وهي وحدها تتحكم بها.

أما أن يشطب كل المسافات بضربة واحدة، وأن يتسلل بخطى واثقة وجريئة، كمن يتسلل إلى فراش زوجته، وبغضّ النظر عن رغبتها واستعدادها، فهذا ما لم يخطر لها على بال.

لم يمكّنها حتى من مراجعة مشاعرها، التي لا تتكر أن "هذا الشيطان" أيقظها بكل توهّجها، مع الاعتراف بكونها استساغت أن تترك له أكثر من

فرصة ليستفزّ رغباتها المكبوتة، وليزوّد أحلامها وعاداتها السّرية بما يمكنها من ملء فراغ فراشها البارد.

.. وأمام دهشتها الآسرة، كان لا يزال راقداً إلى جانبها، بكل قوته وضعفه، تاركاً لها إمكانية تحويله إلى مجرد حكاية، يختلقها خيال المرأة الوحيدة، وذلك من خلال قرار صريح بالطرد المذّل.

. أنت تعرف أنني أستطيع رميك خارج المدينة، أو حتى في السجن.

. يمكنني العودة إلى القرية.. أو إلى جهنم إن أردتِ.

. إذهب الآن إلى غرفتك.

فمضى بصمت، وبخطوات أقل ثقة وجرأة.

لم تصدّق وفاء براءتها، وهي تتلمّس آثار الاغتصاب. واحتارت كيف تعنّف نفسها، المتهمة صراحة بالتواطؤ. خاصة وأنها لم تحكم إغلاق باب غرفتها الخاصة ولو مرة واحدة. في اليوم التالي، لم يذهب عصام إلى مكتب أستاذه للمحاماة. بقي ينتظر أن تدعوه للرحيل، أو إلى فراشها.

وعندما لم تقدم على هذا ولا على ذاك طيلة أسبوع كامل، قدّر بأن ثمة دعوة سرّية. لا تستطيع أن تفصح عن نفسها. فدلف إلى غرفتها بدم بارد!

كان الضوء البرتقالي الخافت يومئ له، ليوقّع بجسده وثيقة امتلاكه لموطئ جسد في منزل دافئ وواسع.

لم تبدِ وفاء أية دهشة أو اعتراض. وكانت عيناها المترقّبتان مفتوحتين على انفعالات مضطربة ومتناقضة، راحت تتجسّد على السقف بصورٍ غائمة ومشوّشة، وبمقاييس غير منضبطة، تاركة عصام يحتويها كما يريد، وهو يلهث خلف نداءات جسدها البعيدة، التي بدأت تتقاطر وتخونها مع هذا الرجل، الذي يرفض أن يكون عاقلاً ولو للحظة. والذي كرّس باحتلاله لكامل جسدها إمكانية الاقتراب من تلك الروح التي مازالت تلوب بحثاً عن سمائها.

. وبعد؟!

. لنعلن زواجنا

. سنفعل.

بسرعة تمّ عقد الزواج. رغم حذر الأم، وبمباركة الكولونيل، خلال حفل صغير، ضمّ الأصدقاء والأقرباء، ولمّا يمض سوى شهرين على مجيء عصام. حيث نجح في ضبط جسد وفاء وحساباتها على مقاسه.

أم نادر رفضت تحديد موقفها بوضوح. حرّكت يديها بشكل غامض، وهي تغمغم بكلمات مبهمة. كما تخلّفت عن حضور مراسيم الزفاف، وبعناد أربك زوجها، مما اضطره للإدعاء بأنها مريضة، دون انتظار قناعة أحد بذلك.

***

الفصل الرابع والعشرون

علاقات اجتماعية كثيرة ومتشعبة كانت تنتظر أسرة الكولونيل بعد الزواج الثاني لوفاء، بمبادرة من المحامي المتدرّب "عصام" الرجل الثاني في الأسرة، والذي لم يوفّر فرصة للدخول في المجاهيل الاجتماعية المغلقة على الصغار، مستنداً في ذلك على يوسف بيك بالدرجة الأولى، ومن ثم على الأستاذ "أبو تيسير" اللذين رأيا في صهر أختهما الجديد "نوعية ممتازة ومختلفة عن طينة الكولونيل، الذي لا يريد إلا أن يكون خاملاً." على حد تعبير يوسف بيك، والذي بات أسير عوالمه الخاصة والمحدودة، مع التفكير الجدّي بالهجرة النهائية إلى الريف. كإنسان متقاعد، يرغب في الاستقالة من حياة أمسكت بخناقه طويلاً، حيث بات يردّد:

ـ إنشاء مزرعة بسيطة وبيت متواضع في القرية، هو كل ما أستطيع التفكير به الآن. فتساءل عصام بدهشة: الناس تهرب من الريف، وأنت تهرب إلى الريف؟!

وعقّبت أم وفاء بقولها: أنا لا أستطيع السكن في القرية.

لكن وفاء أكدت أن الفكرة ليست سيئة، ولا تشترط انتقال الجميع إلى القرية، معتقدة أن لوالدها أسبابه الكافية.

.. الوضع المادي لم يكن يسمح بالتنفيذ الفوري للفكرة، وكان على الكولونيل أن ينتظر بعض الوقت، لكن تسويفاً واضحاً جعله يخرج عن طوره،

ويبدأ بترتيب أشيائه الخاصة، مع طلب بعض مدّخراته المالية.

. إلى أين؟

. إلى جهنم.

وسافر إلى القرية، مفاجئاً أهلها، الذين رحبّوا بعودة الكولونيل، الذي لم يعد كولونيلاً، إلى قريته التي يمكن أن تستوعب كل خيباته، وتتذكرّ معه الكثير من الآمال المشتركة والمحبطة.

واندرج في عداد المألوف، حيث بات يذهب صباحاً إلى البستان القريب سيراً على الأقدام، ويؤوب مساء إلى القرية، أو ينتقلّ من منزل إلى آخر بصحبة أبي نادر، دون أن يملّ أحدهما من التحدّث للآخر، مع كثير من الإيماءات والحركات التعبيرية للأيدي، والابتسامات الوقورة.

آنذاك لم يتّسع وقت الأسرة للتفكير الكافي بحل مشكلة سفر الكولونيل إلى القرية. مثلما أن أحداً لم يكن مستعجلاً لحلّها، خاصة وأن وجوده المؤقت في منزل أخيه لا يدعو للقلق أبداً.

في حين بدأ الكولونيل ينغمس بارتياح، أكثر فأكثر في تفاصيل الحياة الريفية اليومية، وينسج علاقاته الخاصة والعامة بهدوء ويسر ورضى. مع أن قلقاً حقيقياً كان يعتوره من حين لآخر، لإدراكه أن الحياة الخاصة نفسها، لا يمكن صياغتها وتحديدها بشكل خاص!

إلى أن جاءت البرقية المستعجلة:

"توفي الحاج عدنان.. إحضر بسرعة.. عصام." فابتسم الكولونيل معقّباً:

. ليمت كل الحجاج.. ماذا أفعل لهم؟!

لكن أبا نادر قال: لا يجوز.. الواجب واجب.. سنسافر معاً وبأول سيارة.. إن شاء الله.

كان عصام أكثر من اهتم بوفاة الحاج عدنان الذي ناهز الثمانين من العمر. وكان الأكثر حضوراً وحرصاً على القيام بالواجب.

ومن ثم حاول أن يتكفّل بكل الإجراءات القانونية الخاصة بالميراث "والتي تصدع الرأس". كما قال، لكن يوسف بيك والأستاذ "أبو تيسير" لم يغفلا لحظة واحدة عن أبعاد "هذا الصداع." وتابعا بنفسيهما مع محامين آخرين قضية التركة، هذه التي لم يستوعب عصام كيف أنها تخصّ رجلاً واحداً، ولو كان

بوزن الحاج عدنان!

وكان ينقل إلى حماته "التي تأقلمت مع مرض القلب لكأنه زكام!" وإلى زوجته التي "تدسّ أنفها بكل صغيرة وكبيرة" تفاصيل القضية يوماً إثرَ يوم.

وهمس للكولونيل: قريباً سننشئ المزرعة، وبشكل فنيّ ممتاز إنشاء الله، مع بناء فخم يليق بك وسيارة تريحك.. وقد نضطر لشراء الأرض من والدي، لتوسيع المزرعة بالقدر المناسب، مع إعطاء تعويض مناسب لـ عجوزنا.

فقال الكولونيل مغتاظاً: بم تهرف يا ولد؟! إذا بدأت اليوم بأبيك فبمن ستنتهي؟! أرض "أبو نادر" ليست للبيع أبداً" ثم إنك تتحدّث وكأنك الوصّي على ليلى وعلينا جميعاً!"

اكتفى عصام بالابتسام لهذا الكولونيل الذي "لا يفهم الأمور إلا متأخراً، في زمن لا ينتظر أحداً." وقدّر أن لا ضرورة لضياع الوقت في أحاديث غير مجدية مع هذا الرجل الذي "يصرّ على عدم استيعاب أمور الدنيا." فانسحب مخلفاً الكولونيل مع حنقه وارتجاف يديه، وهو يجمع أشياءه الخاصة وبقية مدّخراته، ليعود ثانية إلى القرية، وبرفقة أخيه هذه المرة، بعيداً عن أحلام ومشاغل أسرته التي لم تعد تتسع له اليوم، ولم تعرقل رحيله.

***

الفصل الخامس والعشرون

أدار الكولونيل ظهره للعاصمة، للحاضر والمستقبل، ومضى باتجاه أيامه الأخيرة، التي لا يعرف أين وكيف يبعثرها، خالعاً عنه وإلى غير رجعة ثيابه العسكرية وأوسمته.

الهويّة الكرتونية وحدها بقيت تقبع في جيبه كدليل وحيد على ارتباطه بمؤسسة لم تعد تعترف به.

. الهويّات.. الهوايا.. بسرعة.. بسرعة.

كسواه مدّ يده بالهويّة ذاتها، وما أن طالعها رجل الأمن حتى تصلّب وردّد بارتباك واضح: عفواً سيدي الكولونيل.

".. أية سلطة مازلت تحملين أيتها الـ..؟!" بذلك غمغم الكولونيل، وهو يدسّ الهوية في جيبه بحنق، ومن ثم حملق بالطريق التي يعرفها جيداً، وهي تتعرّج باتجاه مدينته الريفية، التي بدأت كغيرها تتهرّب من ريفيّتها، لافظةً أحشاءها هنا وهناك، مع الإمعان في تبرّج عجول، لا يدعو إلا للشفقة.

رآها من بعيد، وهي تقترب كعانس في مجتمع ذكوريّ. ".. لا أستطيع إلا أن أحبك أيّها المدينة.."

".. . إياك ..المدينة تضيّع الأصول.

. لا عليك يا أبي

. الدراسة أولاً وأخيراً.
. طبعاً يا أبي.
. أول بادرة فسق، وأجرّك من أذنك إلى القرية.
. أعوذ بالله يا حاج.
. وأول رسوب يعني العودة إلى الفلاحة.
. موافق.
. وأول..
. موافق.. موافق وحياتك يا أبي.
. أترك الصبيّ.. الله يرضى عليك.. هو أعلم بمصلحته."
ليرحمك الله يا أمي، من يعرف أين مصلحتي.. ومتى وكيف؟؟
". مصلحتنا كطلبة واضحة.. نريد كتباً مجانيّة.
. تعيش الكتب المجانيّة
. تعيش.. تعيش..
. نريد الخبز والكتاب..
. يعيش الخبز والكتاب.. يعيش.. يعيش..
. نريد الوحدة.. يسقط الانفصال..
= تعيش الوحدة.. تعيش تعيش. يسقط الانفصال.. يسقط، يسقط.
. تسقط الحكومة.
= تسقط.. تسقط.."
واشتعلت المدينة ذاتها بالمظاهرات.
كيف انفتح الكتاب المدرسي على الخبز والوحدة، على السياسة ورجم الدرك بالحجارة يا مدينتي؟!
يومئذ جاءت فرقة مكافحة الشغب " أي شغب؟!" الرصاص كان الأقدر على الإجابة.
وسقط بضعة "مشاغبين" وهم يحملون حقائبهم المدرسية.
رأيت "حسن خرّوص" الطالب الريفي الفقير والخجول، يسقط أمام عينيّ،

تتبعثر كتبه، ويده الملوثة بالدم تحاول عبثاً لملمة جرحه والإمساك ببقايا روحه.

". مات.. مات!"

الحجارة مقابل الرصاص.. أجساد الطلبة وأحلامهم مقابل البندقية الوطنية! الذعر والفوضى والصراخ و...

" . تعال.. تعال يا ابني." ودفعتني امرأة إلى داخل منزلها، لتتمترس بالباب، وهي تلوّح بيدها، وتصرخ بوجه العسكري الذي كان يطاردني: ليصيبك العمى إنشاء الله يا نذل.

هل أصابه العمى؟ أم خاف؟ أم خجل من وجه المرأة؟ لا أدري

كل ما أدريه أنني رُزقت بغتة أمّاً ثانية. حيث راحت يداها من بعد، تلّملماننني، وتعمّدان بنوّتي بحركات مليئة باللهفة والحنان، مع شتائم ثقيلة لكل ما خلق الله من شرطة.

وكانت عيناني تخجلان من بقايا رواسب الخوف. وتستعيدان الإحساس، لا بالأمان الضائع فحسب، بل وبرجولة غامضة، ترضي مشاعر هذه الأم، التي لا تريد أن ترى فيّ مجرّد صبيّ.

" . هل تذكرين يا أم إبراهيم؟

. كيف لا أذكر يا حبّة عينيّ؟!"

كان ثمة ألف "يسقط" وألف "يعيش" في حلق الكولونيل الجاف، يغصّ بها، يراها وهي تصطدم بالمارة، وبنداءات الباعة الذين بُحّت أصواتهم، ثم تنهرس تحت عجلات سيارة الجيب، التي يعرفها الجميع.

. هل نتوقّف للاستراحة يا شباب؟

. لا.. تابع من فضلك.

. تكرم يا كولونيل.

وتابعت السيارة طريقها إلى القرية وسط أرض جرداء خاليةً إلا من ذكريات خصوبة بعيدة، حيث كانت كروم العنب والتين وسواهما من الأشجار المثمرة، إضافة لأشجار الزنزلخت والصفصاف والزيزفون، ترافق المسافرين إلى كل الجهات، من وإلى القرية، جنباً إلى جنب مع شتى أنواع النبات والمزروعات، ومع عبق الأزاهير البرّية وهو ينفذ إلى الأعماق.

".. . أنت جَدِي أم بني آدم؟" تقول أمي منرفزة، وهي تلملمني عن البيادر الغارقة بخضرتها وبهائها.

. اتركينا نلعب يا ربيّ!

ـ تعال كل، ثم انقلع. تعاود أمي القول بشيء من القسوة الكاذبة، التي سرعان ما تتحوّل إلى هدهدات تربك الروح"

".. من حرّض على قتل أمّنا الطبيعة تلك؟!

. القطن يا "أبو يوسف" القطن.. ذهبٌ خالص والله.

. إي والله يا "أبو أحمد" لن نقصّر إنشاء الله"

بشراسة اندفع الجميع لاقتلاع الكروم والأشجار، وكل تلك الخضرة الرائعة، مع الشروع بحفر سلسلة كثيفة من الآبار الارتوازية، وشراء المضخات الإنكليزية، الواعدة بريّ أقصى المساحات المرصودة لبذار القطن، وبذار الأحلام بثراء عاجل يملأ الأفواه ذهباً، والذي سيقفز بالقرية من عالم النسيان والوضاعة إلى عوالم ألف ليلة وليلة" كما يؤكد بعض العارفين، أو مدّعي المعرفة.

لم تتأخر وفرة المال الموعودة بالتعبير عن نفسها، لا باقتناء السلع الوافدة الجديدة وحسب. بل وبتعدّد الزوجات، مع تعدّد الغرف المبنيّة دون نظام، وبنقوش ورسوم ورموز شتى على الجدران والأبواب، والتي لم تخلُ من أحذية بالية مقلوبة فوق هذا الركن أو ذاك من المنازل درءاً لعيون الحسّاد.

ثم بدأ المال الفائض يشقّ طريقه إلى آنية فخاريّة، يُحكم إغلاقها، لتُدفن بسرّية، كطريقة وحيدة معروفة وآمنة للادّخار.

لكن نضوب المياه الجوفية بسرعة، وتقلّص نسبة الأمطار، والانخفاض الحاد في أسعار القطن، جعل الجميع ينبشون مدّخراتهم لتمويل الركض خلف الماء الغائر، عبر سراديب عميقة وضيقة وطويلة، تلك السراديب التي راحت تنزّ آخر ما في جعبة الحوض المائي الناضب، مع أمل باهت يعتصره الفلاحون من الأرض الصّماء مع كل ضربة معول، فيحرّضهم على الاستدانة ولو بفوائد كبيرة، ومن ثم على بيع محصولاتهم سلفاً قبيل جَنْيها، وبنصف أثمانها الواقعية للتجار، الذين تكاثروا كالذباب من حولهم.

مـع ابتسـامات مشـجعّة، انتهـت بالأغلبيـة إلـى الإفـلاس، وبـالبعض إلـى الهرب من أراضيهم وقراهم، وبآخرين إلى السجن لعجزهم عن تسديد الديون.

".. سأهجر هذه القرية الملعونة والله." قال أبو يوسف بحزن وغضب، وقد دفن آخر أحلامه، وباع كل ما يمكن بيعه من ممتلكات، في حين بقيت يدا "أمين" سلعة ضرورية، تؤمّن الخبز لصاحبها في كل الأحوال.

". أبو رشيد قال: ابحث عن أصل كل المصايب في السياسة.

. بلا سياسة، بلا بطيخ، هذه عقوبة من الله، الناس كفرت يا أمين.

. طوال عمرك تكفرّ الناس يا شيخ، لكأن الإيمان مفصّل على قياسك!

. أكفرّ الكفرة يا بن إدريس، وأنا أعرف منك بألف مرة.

. الكفر والإيمان لا يفسّران التاريخ.. أبو رشيد نفسه قال ذلك.

. أنت اشتراكي زنديق، أعرف.. أنت وأبو رشيد إلى جهنم.. سترى بعينك.

. اتركونا بهمّنا يا جماعة،الله يرضى عليكم".

كان الهمّ والإفلاس طاغيين على كل شيء. وبدأت هجرة واسعة إلى داخل وخارج البلاد. الحاج إبراهيم بدوره فكر جدّياً بالهجرة، لكنه لم يستطع.

كانت ثمة علاقة خفيّة مع الأرض، مع البيادر، مع القبور، ومع هذه السماء ذاتها التي شهدت وتشهد على أن "الهجرة مؤلمة.. مؤلمة يا إبراهيم".

. الالتصاق بالأرض دون مبرر نزعةٌ طفْليّة لا أكثر ولا أقل.

ذلك ما قاله عماد لأخيه، مع تصميم عنيد على مغادرة القرية، التي عادت، الآن تنبسط أمام عينيه، بجدرانها الطينية المتعرّجة والمتداخلة، مع بقع اسمنتية هنا وهناك، بأزقتّها الضيّقة والمتربة، وبأطفال أنصاف عراة، وهم يركضون بصخب وعفوية، كجراءٍ صغيرة متّسخة، وبنساء لا يعرفن التبرج، يسارعن لإظهار أفراحهن وأحزانهن ببساطة، جنباً إلى جنب مع رجال لا يحتاجون لتأكيد سطوتهم على النساء والأطفال و.."..لا..لا.. الشباب مختلفون هذه الأيام يا عم.. صاروا كالشياطين، وما عدت تعرف الذكر من الأنثى.. الدنيا تغيّرت.. حتى الكبار تغيّروا.. أما إلى أين؟ فلا أحد يعرف."

".. هل أخطأت في العودة إلى القرية؟ ألن أبدو زائداً هنا.. تماماً كما أصبحت في المدينة؟ لا أدري. عموماً يريحني هذا الفضاء اللامحدود، والذي لم

يُصادر بعد، مثلما يريحني وجود أبو نادر إلى جانبي، هذا الذي يشعرني دائماً أنه بانتظاري، وأنني أتيت في الوقت المناسب، وأن لدينا ما نفعله!.

أيّ وقت؟! وأي فعل؟! أشعر أن العالم ضيّق ضيّق.. أكاد أختنق.. كيف تشعر أنت يا أبا نادر؟

من أين لك كل هذا الرضى؟! تنام في السيارة كما لو كنت في بيتك! تتأقلم مع الخصوبة.. تتكيّف مع الجفاف..تصلّي بورع.. ثم تعاتب الله لكأنه صديقك!

تتندر على شيخوختك لكأنها مزحة! تسبّ.. تشتم.. تقاتل.. ثم تلعن الشيطان، وتبتسم فاتحاً قلبك وذراعيك، لكأن ما حدث مجرّد غلطة عابرة!

ولكم أحسدك على ذاكرتك العجيبة الملأى بالتفاصيل، التي أعتبرها تافهة. هل أنت مجرد تفاصيل يا أبا نادر؟ وقائع؟ أحداث؟ صور؟ نثرات حياة؟؟ وأنا؟؟ أعموميات؟؟ أأحلام بلا لون ولا طعم؟ أكلام فارغ؟ خيبات؟ أم ماذا؟؟

حاولتُ بجدّ أن أكون شيئاً، أن أفعل شيئاً، ثم ماذا..؟

التفاصيل كانت أكبر مني.. آه لو أستطيع الرجوع إلى الوراء عشرين.. ثلاثين سنة، أو أكثر. مأساتنا أننا لا نستطيع الرجوع، لا نستطيع أن نكون أكثر مما كنّا.. هل يكفي ذلك؟ وبعد؟ ننسحب من الحياة لنموت؟ أم.. أم ماذا؟؟

بالأمس قلت لنفسي معاهداً: سأترك كل أسئلتي ووجع الرأس، وسأعيش بقية عمري كما يعيش أبو نادر لا أستطيع.. أعرف.. أستطيع فقط أن أتذكر وأتألم.. أن أرى وأتألم.. أن ألعب مع الحياة كطفل.. أصوغها على هواي. فتنكسر..

".. الحياة ليست لعبة يا أخ."

منذ أربعين سنة قال لي أمين إدريس: الحياة ليست لعبة يا أخ.

لم يكن "أمين" يتفلسف، وهو لا يعرف شيئاً عن الفلسفة، يعيش الحياة كنبتة، يتحسّسها، يتشمّمها، ثم يقطّب جبينه، هو نفسه لا يدري ما الذي يدور في رأسه.

.. تعال.. تعال قل لي اليوم شيئاً يا أمين، أيّ شيء.

ربما أصبحت اليوم أكثر قدرة على فهمك.

.. لن تأتي أبداً. أعرف ذلك. وأعرف أنك لن تنتظرني بعد.

لماذا متَّ باكراً يا أمين؟

إثر كل زيارة كنت ◌َ تسارع للقائي. تأتي لكأننا على موعد. وما أن تجلس قبالتي حتى تنسى لماذا جئت! فقط عيناك تحملان لي عتاباً غامضاً، واتهاماً غامضاً، لكأنني المسؤول عن كل ما يجري! .. لا تربكني يا أمين.. ما الذي تريد قوله؟ وماذا أقول لك؟ ثمة دين قديم أعرفه ولا أعرفه.. نتحلق حولك كأطفال كبار، وأنت العامل الزراعي، الذي لا تجيد كتابة اسمك، تريد زجّنا في دوّامات السياسة والحياة والأحلام الغامضة، تحدّثنا عن ذلك الاشتراكي، الذي ".. أرسله الله ليجعلنا بشراً" كما تقول، وتحدّثنا بزهو عن رحلتك الطويلة سيراً على الأقدام، لتتعرّف وجهاً لوجه على "أبو رشيد" في المدينة "العصيّة على أشباه الرجال."

وتختلط صورة أبي رشيد بك.. فلا ندري كيف نوزّع احترامنا بينكما، ولا لماذا بالضبط!.

كنا ثلّة من الأولاد. لم نجتمع إعجاباً بالاشتراكية التي لم نكن نفهم عنها شيئاً، فقط كنا نعجب بحكاياتك عن أبي رشيد، الذي "وزّع أملاكه وأراضيه الزراعية على فلاحيه." ودعا لحياة نظيفة من الفقر والقهر. دون أن تدري أنت نفسك كيف

بل لربما رسمت لأبي رشد صوراً وأفكاراً على قدر أحلامك أنت، دون أن تدري، ودون أن ندري نحن بدورنا.

وحين رحنا نشاغب على أحلامك، بدأت تحزن وتغضب، إلى أن طردتنا بالتي هي أحسن، مع ذلك بقي دينك قائماً في وجداني، لا أدري كيف.

أخجل منك، وأنت تدقّق النظر في سيارتي، في رتبتي العسكرية، في ثيابي الأنيقة، أخجل من صمتك، وأحرّضك على قول شيء ما.

كنت تبتسم وحسب، تلك الابتسامة التي كانت تؤذيني، وتشعرني بالذنب، لدرجة أنني بدأت أتهرّب منك بتهذيب كبير.

لم يخدعك تهذيبي، فأدرت لي ظهرك وغبت.

غيابك كحضورك مؤذٍ يا أمين، لكأنك مجرد ضمير يكتفي بوخزنا..."

. الحمد لله على سلامتكم يا شباب.. تفضلوا.

فترجّل الكولونيل وهو يستنشق بعمق أول جرعة هواء ريفية نظيفة، مع

حنين عميق لكل ما هو بسيط وواضح وجميل، راجياً أن يتسع له المكان والزمان لمراجعةٍ عامة وشاملة، وأن تغادره الهواجس الملعونة التي تؤرّقه وتنخر عظامه.

***

الفصل السادس والعشرون

بعد انتظارٍ ثقيل وممضّ، وبعد الإجراءات الخاصة جداً، انفتحتْ الأبواب الداخلية والخارجية، وقيل لرهط كبير من رهائن الأحلام التاريخية: "إياكم أن نلتقي ثانية."

فخرجوا من كهوفهم، غير مصدقين أن السماء لازالت زرقاء، وأن الأرض ستنبسط أمامهم، وستتوزّعهم بحنان، غير آبهين لمظاهرهم الرثّة ولوجوههم الشاحبة. حاملين صررهم المليئة بذكريات البؤس والقهر والخيبة.

أجنحتهم الوهمية تكسرت حالما واجهوا الطريق، فلم يستطيعوا الطيران الفوري إلى ذويهم وأحبّتهم. ولم يستطيعوا أن يأكلوا الدنيا، فانتظروا في متاهات الكراجات. إلى أن أقلتّهم وسائل النقل المتعددة، مع كل أوهامهم وأحلامهم الغامضة، كلٌّ إلى حيث يمكن أن يحاول ترميم حياته الخاصة والعامة.

الغُصّة لم تفارق حلق نادر، وهو يرى الدروب ذاتها والسماء ذاتها، لكأنه يراها للمرة الأولى.

وهنالك على مفترق الطريق إلى القرية، كان الأهل والأصدقاء بانتظاره، حيث اختلطت الدموع بشهقات الفرح، وحيث تحول اللقاء إلى عرس.

ثلاثة أيام مضت ومنزل أبي نادر يعجّ بالمهنئين، ونادر المرهق من الفرح والتعب يستقبل هذا ويودّع تلك، وكانت ثمة غائبة كبيرة لم تحضر بعد.

. أين وفاء؟

مراراً تساءل، وكانت الأجوبة المراوغة تخبّئ ما لم يكن بالحسبان. أخيراً بدت تمهيدات الأم زائدة، حيث أدرك نادر أن الحياة لا تنتظر أحداً، وأن فاتورة الغياب لم تدفع كاملة بعد، وحدّق مليّاً بالجدار العتيق، حيث شريط طويل من الذكريات يكرّ سريعاً، ويسقط في وحل اللحظة الخاملة، في اليوم الخامس أتى عصام وحيداً بسيارته الخاصة الفارهة، وبعد لقاء مشحون بالمضمر، طغى عليه صخب عصام ومرحه المفتعل، وبرغم حرص الجميع على إغفال اسم وفاء، أصرّ عصام على الاعتذار نيابة عن زوجته وأمها، حيث "لم تستطيعا الحضور حالياً بسبب الوضع الصحي لأم وفاء.. بانتظار أن تأتيا لاحقاً، مع هديّة مناسبة."

تجاهُل الجميع لمسألة حضور أو غياب وفاء، ساعد عصام على الانتقال سريعاً لطرح مستقبل نادر على بساطة البحث، ومحاولة تحديد سبل المساعدة الممكنة.

نادر كان آخر من أبدى اهتمامه بذلك. بل بدا سلبيّاً لدرجة مؤلمة، وهو يتذكر بأسى أن له مستقبلاً شخصياً ككل البشر، وأن الشخصيّ لم يعد شخصيّاً. وأن مرحلة التقاعد أصبحت هي هي مرحلة التأسيس!!

تطلع مليّاً في وجوه أهله، الذين يحثُّونه على المساهمة في بحث ما يمكن فعله وفكر:

"كم هي مؤذية نظرات الشفقة هذه." فنفرت ابتسامة غامضة من زاوية فمه، ونهض متثاقلاً ليمضي مع صمته المليء، إلى حيث يعيش الكولونيل منفاه الاختياري في المزرعة التي "أقيمت خصيصاً له" كما قال عصام، والذي باتت حالته تنتقل"من سيئ إلى أسوأ، حيث "يعاني من توتّرات عصبيّة ونفسّية غير عاديّة.. مما يُربك حتى طبيبه الخاص، الذي أصبح يعوده أسبوعياً." بل "ما عاد يطيق الحياة الاجتماعية." كما قال أبو نادر بأسى. لا بل "يتضايق حتى من ظله." على حد قول أم نادر.

. تأخرت! قال الكولونيل لنادر متأففاً.

وأردف: لاشك أنهم ملئوا رأسك بالكلام الفارغ. وأغرقوك بالتفاصيل، لا تصغ لهم، لا يعرفون من الدنيا إلا القشور، اجلس وخذ راحتك، كنت أنتظرك لنتحدّث في العمق، وسأحدثك عن مشروع المذكرات، لم يتبق لي إلا أن أكتب، وسأكتب، سترى أن لكتابتي طعم الرصاص.. أعرف أنني ألعب بالنار..

سألعب.. ولن أرحم حتى أصابعي..

. الطبيب يوصيك بالراحة يا عماه.

. الطبيب كغيره.. لا يريد إلا صمتي.. وأنا ما عدت أطيق الصمت.

. رويدك يا عماه.. ما رأيك بنزهة صغيرة في المزرعة.

. نزهة؟! أحدثك عن النار.. وتحدثني عن النزهة؟! لا تتحدّث مثلهم..

أنت دافع ضريبة كبيرة.. ولا يجوز لك أن تتحدث كالآخرين.

. قد نتحدّث في وقت آخر.

. أتعبوك؟ أصبحت ميالاً للتأجيل.. ثم للنسيان والغرق في اليوميّ؟

في التفاهات؟ في...

. لا حول ولا قوة..

. لا تحوقل كالعجائز، الذين لا ينتظرون إلا الموت، بوداعة الخرفان..

لا .. لا تتعلم الوداعة السافلة..

كان صوت الكولونيل قد بدأ يتعالى ويرتعش برغم محاولات نادر لتهدئته. فدخلت "أم حسين" فزعةً وهي تقول: من أزعج الكلولونيل؟!

وأسرعت دون أن تنتظر جواباً، لتقدم له الماء والدواء، قائلة: إشرب.. إشرب يا كولونيل، وحاول النوم أرجوك.

والتفتت إلى نادر بنظرة راجية، آملة أن يدعه يستريح.

وما أن خرجا حتى تساءل نادر: لماذا يبدو الكولونيل متوتراً يا أم حسين؟

. لا أحد يعرف إلا الطبيب.

ثم استدركت كمن تذكر شيئاً: ألم يحدثك عن المذكّرات؟

. أحدّثك أنتِ أيضاً بذلك؟!

ـ يحدّث كل الناس.. ويقول هذا سر! وابتسمت أم حسين. واكفهر وجه نادر. وأقبل البستاني أبو حسين مرحباً بنادر، وراح يحدثه مطولاً عن المزرعة، وعن جهوده وجهود زوجته في رعايتها ورعاية الكولونيل، وعن التقيد التام بتعليمات الطبيب وتعليمات عصام. ثم اشتكى من تطفّل أبو صالح. الذي لا يمكن أن تنتهي زياراته على خير.

. زياراته لمن؟

. للكولونيل.. دائماً تنتهي الزيارة بتوتّر الكولونيل.

. امنعوه من زيارته.

. نحاول.. لكن ما أن يسمع الكولونيل صوته حتى يأمرنا بإدخاله.

. وعم يتحدثون؟

. غالباً عن المذكرات.

. أيضاً؟!

. الكولونيل لا يحفظ أسراره.

وعقّبت أم حسين: ليحمه الله.. أحياناً أخاف منه.. وأحياناً أخاف عليه.. ومضت، تاركة زوجها يتحدث ويتحدث.. عن الكولونيل.. عن المزرعة.. عن زيارات وفاء وعصام التي تزداد تباعداً.. عن متاعب الدنيا.. وحتى عن مشاكله مع أم حسين.

في حين كانت عينا نادر الحاضر الغائب. تزدادان احتقاناً، حيث يتكثف فيها الماضي ويختلط بلزوجة الحاضر. والصور الضبابية، والرؤى الغائمة، تتلاحق، تتشابك، وتسقط كجثث طريّة، غير آبهة لثرثرات أبي حسين التي لا تنتهي.

. نام الكولونيل. قالت أم حسين التي عادت لتوها، مع حركة رأس مطمئنة فأومأ نادر برأسه، بحركة غير مطمئنة، ومضى دون وجهة محددة.

***

الفصل السابع والعشرون

كانت السماء التشرينية تزداد دكنة، وكانت الغيوم السوداء تتوالى وتتراكب هنا وهناك. وعيون الفلاحين تتعقبها بفرح، آملة أن يمنّ الله عليهم بريّ الأرض، ليرموا البذار والأحلام في أرحامها.

وكان أبو نادر يغالب ما تراكم عليه من هموم وهواجس، ويحاول النوم على أمل أن يعجّل بتأمين البذار غداً. ولكن هيهات..

فالمتاعب تحاصره، والمخاوف تخزه، وفي عينيه المليئتين بالخيبة تتسمّرُ النظرات الكابية، التي تتجسّد فيها صور للمشاكل التي لا يعرف كيف ومتى تهبط عليه.

. هل نمتِ يا فاطمة؟ تساءل بما يشبه الهمس، بحثاً عن شيء من الأنس.

ـ لا. أجابت أم نادر، التي كانت تخبئ عينيها المفتوحتين تحت اللحاف، وذهنها المكدود يحاول أن يقول شيئاً محدداً.

ورنّ جرس الهاتف، كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل، فتناول السماعة، وهو يتمتم: اللهم اجعله خيراً.

لكن صوت أبي حسين المفجوع لم يكن يبشّر بالخير، حيث كان يصرخ:

. الحقوا الكولونيل.. الحقوا الكولونيل.. وأغلق الخط.

عندما وصل نادر ووالده إلى المزرعة، كانت الشرطة قد سبقتهم إلى

هناك. حيث كان الكولونيل منكبّاً على وجهه، وأصابع يمناه تلامس مسدساً فوق بقعة دم كبيرة.

. مات منذ حوالي الساعة. قال الطبيب الشرعي.

مسألة الموت وحدها كانت واضحة، في حين بقيت التفاصيل تختلف وتتلّون باختلاف المزاعم والاجتهادات المحجوبة أصلاً عن سير التحقيق.

ـ سمعتُ صوت الطلقة كما في المنام. قالت أم حسين للمحقق، وهي تنشج.

وأردفت: نهضتُ خائفة ومتشككة مما سمعت.. أصغيت بانتباه.. سمعت ما يشبه وقع خطوات..

ثم قالت: لست متأكدة من شيء.. سمعتُ ولم أسمع.. حاولتُ التأكد.. كأنني رأيت شبحاً ما.

ثم قالت: لم أر شيئاً.. كأن شيئاً ما أيقظني وأخافني.. اقتربتُ من غرفة الكولونيل وناديت بصوت هامس.. لم يردّ عليّ أحد... كنت مرعوبة ومشوشة.. أيقظت "أبو حسين" و...

ـ أنا لم أسمع شيئاً . قال أبو حسين. وأردف: الخوف في عينّي أم حسين هو الذي أنهضني.. خرجتُ.. تجولتُ هنا وهناك.. لم أسمع ولم أر ما يريب.. أم حسين أصرّت على الدخول إلى غرفة الكولونيل. فوجدناه كما ترون.

التحقيق انتهى سريعاً إلى أن الكولونيل مات منتحراً. في حين أصرّ البعض على رفض فكرة الانتحار، وراحوا يهمسون بأفكار أخرى، لم يتجرأ أحد على مناقشتها. أما مراسيم الدفن، التي أُريد لها أن تكون رسمية ومختصرة، فقد انفلتت بعض الشيء لتصبح أكثر مواءمة لروح الكولونيل التواقة للتّحرر من كل ما هو رسميّ.

انتهت

*****

****